ما ورد في الكتاب فيما ينال وجوه الظالمين من العذاب

د .فايز بن حبيب بن دخيل الترجمي

الأستاذ المساعد بقسم التفسير –كلية القرآن الكريم في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

- من مواليد عام ١٣٨٣هـ بالمدينة المنورة.
- تخرج في كلية الشريعة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة عام ١٤٠٩هـ.
- نال شهادة الماجستير من قسم التفسير بكلية القرآن بالجامعة الإسلامية عام ١٤١٥ هـ بأطروحته: **مرويات ابن مردويه رحمه الله في التفسير جمعاً ودراسة من أول سورة يس إلى نهاية سورة الحديد"**، كما نال شهادة الدكتوراه منه عام ١٤٢٠هـ بأطروحته: **اختيارات الإمام الشوكاني رحمه الله في التفسير من خلال كتابه فتح القدير عرضاً ودراسة من أول سورة الكهف إلى نهاية سورة الناس".**
- من بحوثه المحكمة : **"الاستقامة في القرآن الكريم"**
- البريد الشبكي: fayz-alturjume@hotmail.com

الملخص

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خير الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد :

فإن البحث يتلخص في النقاط التالية :-

أولاً : عنوان البحث (ما ورد في الكتاب فيما ينال وجوه الظالمين من العذاب).

ثانياً : حدود البحث : الآيات التي تتحدث عن العذاب المسلط على الوجه دون سائر الجوارح ؛ سواء ما كان من ذلك في الحياة الدنيا ، أو عند الموت ، أو في الحياة الآخرة ، إلا إذا كانت في الآية استطراد عن غير عذاب الوجه فغالباً أبين معنى الآية كاملة إتماماً للفائدة.

ثالثاً : طريقة البحث : تتبع الآيات التي تحدثت عن عذاب الوجه وجمعها وتصنيفها ودراسة معناها من كتب التفسير والمعاني وغيرها من كتب أهل العلم التي تعرضت لتفسيرها وهداياتها وتدوين فحوى تلك الأقوال ومضمونها ، أو نصها أحياناً، أو أقتبس منها أحياناً ، حسب خطة البحث و المكونة من : مقدمة، وثلاثة فصول، وخاتمة ذكرت فيها أهم نتائج البحث؛ والتي من شأنها أن تحفز العبد المؤمن على تجنب الأسباب التي تؤدي إلى الوقوع في شيء من تلك الأصناف من العذاب، وفيها بيان ما للوجه من عظيم القدر والمكانة، وعظيم ما يناله من عذاب إن عصى الله .

اسأل الله أن ينفع به: من كتبه ، أو قرأه ، أو سعى في تقويمه، أو نشره.

المقدمة

إنَّ الحمدَ لله نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له .وأشهد أن محمداً عبدُه و رسولُه .﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] ،﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠،٧١]. أما بعد :

فإن الوجه لهو عنوان الإنسان الذي تنعكس عليه أخلاقه وسلوكه وأقواله وأفعاله، وما يكمن في باطن قلبه من طاعة أو فجور، وهو العضو الذي يعكس ما بداخل صاحبه من عواطف وانفعالات وأحاسيس، كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: «ما أسر أحدٌ سريرة؛ إلا أبداها الله على صفحات وجهه، وفلتات لسانه»[(١)]. فهو يعبر عما في داخل الإنسان من فرح، أو ترح، وحلم، أو غضب، وخوف، وخجل، وحب، أوكره .... حتى أصبح يوصف بما يتناسب مع حال صاحبه، كما قال تعالى:﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦ – ١٠٧].

فالوجه معنى يرمز لكل ما يتعلق بشرف الإنسان وهيبته وسمعته وصيته

---

(١) ذكره ابن كثير رحمه الله في تفسيره (٧/ ٣٠٤) لقوله تعالى : ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠] ، قال: «أي : فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم» .

ومكانته ووزنه الاجتماعي، يرمز الوجه للعزة والمنعة وشوكة صاحبه وقوته، ويمثل الرصيد المعنوي والأخلاقي، الذي يحدد قيمة الشخص ونباهة قدره، وتقدير الناس لشخصه، واحترامهم له.

ومن هنا قيل للأشخاص المعتبرين الذين يحظون باحترام الناس وتقديرهم؛ أنهم وجهاء المجتمع، ولذلك فإن وجه الرجل العادي ليس له من الوزن ما لوجه العالم والعابد والسيد والشيخ والفارس، ومن في حكمهم من سراة القوم، وأصحاب المكانة والرفعة ؛ فكلما اجتمع للمرء من صفات الكمال نال من الوجاهة والوزن بقدرها .

أما البخيل والجبان والكاذب والخائن والمنافق، ومن لا يحترمون الأوامر الشرعية، ولا يقيمون وزنا للأعراف والتقاليد؛ فلا اعتبار لهم، ولا حظ لهم من احترام الآخرين، وينقص من وجاهتهم ووزنهم بقدر ما لحقهم من صفات المعرة.

الوجه رصيد معنوي وأخلاقي، ومقياس لمكانة الشخص، ومركزه الاجتماعي، يزيد وينقص؛ بحسب استقامته في دينه وخلقه، وابتعاده عن المخازي، وبحسب ما عنده من خبرات وتجارب، وقدرات على تحمل مسؤولياته، والوفاء بالتزاماته وتعهداته، قد تتفاوت من مكان إلى مكان، ومن زمان إلى زمان .

وكلما تهاون المرء في هذه الأمور كلما أراق ماء وجهه، وكلما علق بوجهه مما يغض من قدره من مغبتها بقدر تهاونه وتفريطه .

لذا يبذل الإنسان كل ما في وسعه للحفاظ على ماء وجهه، وأن يظل وجهه مرآة ناصعة، تعكس عنه كل صورة حسنة، بل ولزيادة رصيده من الوجاهة في مجتمعه، ولا يتهاون بأي حال من الأحوال تجاه أي استخفاف بوقاره، أو انتقاص لمقامه، أو تعد من قبل الآخرين على وجهه، أو النيل من سمعته ووقاره، أو خدش كرامته،

والحط من قدره، أو إحراجه وهز مكانته الاجتماعية، وإظهاره بمظهر الضعف وقلة الحيلة (١).

إن مما يبين أهمية الوجه أنه بالنسبة للإنسان علامة على إنسانيته، وفيصل يميزه عمن سواه، وهو العضو الذي يجتمع فيه من الحواس، ما لم يجتمع في غيره، مما زاد في شرفه ومكانته، ففيه العينان؛ آلة البصر، والأنف؛ آلة التنفس والشم، والفم؛ آلة الطعام والشراب، اللذين بهما حياة الإنسان، واللسان؛ آلة النطق والذوق، ويلاصق الوجه الأذنان آلة السمع.

إن تلك الحواس التي تجتمع في وجه الإنسان لهي من أعظم آيات الله، التي تدل على كمال قدرة الخالق -سبحانه وتعالى-؛ إذ هي أجهزة تعمل طيلة عمر الإنسان بلا توقف، تستقبل المعلومات، وتضخ بها إلى الدماغ الذي يترجمها في الحال إلى الصور التي تراها العين، والأصوات التي تسمعها الأذن، والروائح التي يشمها الأنف، والطعم الذي يتذوقه اللسان، وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١].

فهذه الحواس وسائل هداية إلى القلب، فمن عطلها عما خلقت له كان بمثابة فاقدها، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُولَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

فنفى الله عنهم استطاعة السمع والبصر، مع صحة حواسهم وسلامتها لعدم انتفاعهم بها؛ في فقه المعنى وعقله، وإلا فقد سمعوه سمعاً تقوم به عليهم الحجة، لأن هذه الحواس مدارك العلم وأسباب حصوله، فإذا فسدت فسد القلب؛ لأن من

---

(١) اقتباس من النت بتصرف، ولم أهتد إلى كاتبها .

أعرض عن سماع الحق، امتنع وصوله إلى قلبه ففسد، وإذا فسد القلب؛ فسد السمع والبصر؛ لأنه يصرفهما عن السماع والنظر النافع، بل أصل فسادهما من فساده؛ فكل مدرك من هذه يصح بصحة الآخر، ويفسد بفساده(١).

ومما يؤكد أهمية الوجه كثرة إطلاقاته في لغة العرب إذ تقارب الثلاثين معنى منها :-

أنه يطلق على الذات؛ لأنه أشرف الأعضاء، وموضع الحواس، وعلى القصد؛ لأن قاصد الشيء متوجه إليه، وعلى أول الشيء وصدره ومبدئه، وعلى سيد القوم وكبيرهم، صاحب الوجاهة فيهم والشرف، وعلى القلب؛ لأن الوجه مرآته، وعلى الجاه والجهة، إلى غير ذلك من المعاني(٢).

ولما كان الوجه بهذه الأهمية بين أعضاء الجسد، وبهذا التكريم من الله -سبحانه وتعالى-، ولما جمع الله فيه من الحواس التي هي بمثابة المنافذ لهداية القلب، ودلالته على توحيد الخالق وعظمته، فإن من لم يقابل ذلك بعظيم الشكر، والخضوع، والذل، والتواضع لله تعالى -وعنوان ذلك خضوع الوجه-؛ فإنه قد عرض نفسه لعقوبة الله تعالى، واستحق منها ما يتناسب مع عظيم النعمة التي فرط في شكرها، ولهذا توعد الله أولئك بالعقاب الأليم الذي ينال وجوههم؛ سواء في هذه الحياة الدنيا، أو عند الموت، أو في الحياة الآخرة، وهذا ما سأتناول بيانه في ثنايا هذا البحث بحول الله وقوته.

---

(١) انظر مفتاح دار السعادة (١/ ١٠٢،١٠١) بتصرف يسير .

(٢)انظر مادة (و ج ه) في مختار الصحاح ص (٥١٩) ، ولسان العرب (١٣/ ٥٥٥-٥٥٩) ، والمصباح المنير ص(٢٤٩،٢٤٨) ، والقاموس المحيط ص (١٦٢٠) ، وتاج العروس (٣٦/ ٥٣٥-٥٤٦) .

منهج البحث:

جعلت هذه الدراسة منصبة على العذاب الذي ينال وجوه الظالمين ؛ سواء في هذه الحياة الدنيا، أو عند الموت، أو في الحياة الآخرة ، وبذلت الجهد في استقراء الآيات التي تتحدث عن ذلك ، وتصنيفها حسب خطة البحث ؛ التي بنيتها على ذلكم الاستقراء ، مع تتبع أقوال المفسرين في الآيات، والاستفادة منها؛ إما بتدوين نصها، أو فحواها؛ إذا كانت متقاربة ؛ موثقاً تلك الأقوال من مصادرها، وغالباً ما أكتفي بالمعنى الإجمالي؛ لتقارب الأقوال، فإذا كان في أحدها ما يميزه على غيره من نكتة، أو زيادة بيان وهداية، أشرت إلى ذلك غالباً .

خطة البحث:

جعلت هذا البحث في مقدمة، وثلاثة فصول، وخاتمة، على النحو الآتي:

الفصل الأول : ما ينال وجوه الظالمين من العذاب في الحياة الدنيا.

الفصل الثاني : ما ينال وجوه الظالمين من العذاب عند الموت.

الفصل الثالث : ما ينال وجوه الظالمين من العذاب في الحياة الآخرة، و هو في أربعة مباحث:

المبحث الأول : تسليط العذاب على وجوه الظلمة.

المبحث الثاني : هيئة وجوه الظلمة، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: ذل وجوه الظالمين وهوانها.

المطلب الثاني: أمارات ذلّ وجوه الظالمين، وفيه ثلاث مسائل: الأولى: سواد وجوه الظالمين، الثانية: خشوعها، الثالثة: شخوص أبصارهم.

المبحث الثالث: صنوف العذاب الذي ينال وجوه الظالمين، وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول : اتقاء الظالمين النار بوجوههم.

المطلب الثاني : مشي الظالمين على وجوههم في النار.

المطلب الثالث : سحب الظالمين على وجوههم في النار.

المطلب الرابع : شيّ النار لوجوه الظالمين.

المطلب الخامس : لفح النار لوجوه الظالمين.

المطلب السادس : طرح الظالمين على وجوههم في النار.

المطلب السابع : تقليب وجوه الظالمين في النار.

المبحث الرابع: ما ينال بعض أجزاء وجوه الظالمين من العذاب، وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول: ما ينال أفواه الظالمين وما حولها، وفيه أربع مسائل: الأولى: قبح هيئتها، الثانية: الختم عليها، الثالثة: صوت زفير الظالمين وشهيقهم، الرابعة : الغصص التي يتجرعونها.

المطلب الثاني: ما ينال أبصار الظالمين من العذاب.

المطلب الثالث: ما ينال أسماع الظالمين من العذاب.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج .

سائلا المولى القدير العون والتوفيق والسداد، راجياً من إخوتي الفضلاء ممن يقع ناظره على خلل أو زلل فيه –وهو محل لذلك ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]–؛ بأن يرشدني ويسددني إليه على هذا البريد :

fayz-alturjume@hotmail.com

مع دعائي له بأن يوفقه الله لما يسعد به في دنياه وأخراه .

الفصل الأول

ما ينال وجوه الظالمين من العذاب في الحياة الدنيا

إن عظم الجرم والخطيئة قد يتسبب أحيانا في تعجيل العقوبة لصاحبها في الدنيا قبل الآخرة، وقد قص الله ﷻ علينا في كتابه بعض ما حل بوجوه الظلمة من تلك العقوبات الدنيوية، لما تمردوا على أوامر الله، وخرجوا عن طاعته، فقال تعالى -مخبراً عما حل بقوم لوط لإتيانهم قبيحة لم يسبقوا إليها- : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ . إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ . نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ . وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ . وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ . وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ . فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ [القمر: ٣٣- ٣٩].

فيخبر الحق سبحانه وتعالى عن قوم لوط؛ كيف كذبوا رسولهم وخالفوه، وارتكبوا المكروه من إتيان الذكور، وهي الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين؛ ولهذا أهلكهم الله هلاكا لم يُهلكه أمةً من الأمم، فإنه تعالى أمر جبريل عليه السلام فحمل مدائنهم، حتى وصل بها إلى عَنَان السماء، ثم قلبها عليهم وأرسلها، وأتبعت بحجارة من سجيل منضود؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ﴾ وهي الحجارة ، أو هي الريح التي تحمل الحصباء ؛ وهي صغار الحصى(1) ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴾ [القمر : ٣٤]، أي: خرجوا من آخر الليل فنجوا مما أصاب قومهم ، إلا امرأته، أصابها ما أصابهم، وخرج نبي الله لوط وبناته من بين أظهرهم سالمين، لم يمسَسْهم سوء؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ . وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا ﴾ أي: قبل حلول العذاب بهم قد أنذرهم بأس الله وعذابه، فما التفتوا إلى ذلك، ولا أصغوا إليه، بل شكوا فيه وتماروا به، ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ ﴾ وذلك ليلة ورَدَ

---

(١) انظر تفسير الطبري (١٤/ ٦٧١،٦٧٠) ومعاني القرآن للزجاج (٣/ ٢٥١).

عليه الملائكة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، في صورة شبان مُرد حِسان، محنَةً من الله بهم، فأكرمهم نبي الله لوط عليه السلام، فما كان من امرأته السيئة إلا أن بعثت إلى قومها، فأعلمتهم بأضياف لوط، فأقبلوا يُهْرَعُونَ إليه من كل مكان، فأغلق لوط دونهم الباب؛ خوفاً على أضيافه، فجعلوا يحاولون كسر الباب ولوط عليه السلام يدافعهم ويمانعهم دون أضيافه، ويقول لهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾ يعني: بنات قومه فكل نبي بالنسبة لأمته كالأب بل حقه أعظم، ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي من أرب وحاجة ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩].

فلما اشتد الحال وأبوا إلا الدخول ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ . قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨٠ - ٨١]. فخرج عليهم جبريل عليه السلام فضرب أعينهم بطرف جناحه؛ فانطمست أعينهم، يقال: غارت من وجوههم.

والمراودة: مفاعلة، وهي محاولة رضى الكاره شيئا لم يقبله، وضُمِّن ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ﴾ معنى: دفعوه وصرفوه، فعُدِّي بعَنْ، وأسند المراودة إلى جميع قوم لوط، وإن كان المراودون نفرا منهم؛ لأن الجميع راضون بذلك (١).

وقيل: معنى قوله: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ لم تبق لهم عيون بالكلية، بل صارت مستوية لا شق لها، فرجعوا على أدبارهم يتحسسون بالحيطان، ويتوعدون لوطا عليه السلام، إلى الصباح، وقيل بل ضربهم جبريل بجناحه، فتركهم عمياً، يترددون، لا يهتدون سبيلا (٢).

---

(١) انظر التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٠٥،٢٠٦)

(٢) انظر تفسير ابن كثير (٧/ ٤٥٦)

﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ أي: لا محيد لهم عنه، ولا انفكاك لهم منه، والمستقر: الثابت الدائم ، والعذاب: هو الخسف ومطر الحجارة كما هو مذكور في سورة هود، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ . مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٢ – ٨٣](١) .

وإن كانت عقوبة الله بطمس الوجوه قد تحققت لقوم لوط في هذه الحياة الدنيا؛ جزاء على سوء فعالهم، ودلالة على كمال قدرة الله ﷻ؛ فإن الله قد توعد الظلمة أهل النار بأنه قادر على أن ينزل بهم تلك العقوبة؛ بأن يطمس على أعينهم في هذه الحياة الدنيا، أو ينزل بهم ما هو أشد من ذلك؛ بأن يمسخهم ويشوه خلقهم، ولكنه لم يشأ ذلك، وتركهم لحكمة بالغة، حيث قال جل شأنه: ﴿ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ . اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ . الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ . وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ [يس: ٦٣ – ٦٧].

ومعنى الآية أي : يقال للكفرة من بني آدم يوم القيامة، وقد برزت الجحيم لهم تقريعًا وتوبيخًا: ﴿ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ أي: هذه التي حذرتكم الرسل فكذبتموهم ﴿ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾.

وقوله: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في تفسيرها: «يقول: ولو نشاء لأضللناهم

---

(١) انظر تفسير ابن جرير (٢٢ / ١٤٨ – ١٥٣) ، وتفسير ابن كثير(٧/ ٤٥٥ ، ٤٥٦) والتحرير والتنوير (٢٧/ ٢٠٥،٢٠٦)

عن الهدى، فكيف يهتدون؟» وقال مرة: «أعميناهم». وقال الحسن البصري والسدي: «لو شاء الله لطمس على أعينهم، فجعلهم عُميًا يترددون». وقال مجاهد، وأبو صالح، وقتادة، والسدي: «﴿فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ﴾ يعني: الطريق». وقال ابن زيد: «يعني بالصراط هاهنا: الحق، ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ وقد طمسنا على أعينهم؟». وقال العوفي، عن ابن عباس: «﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ يقول: لا يبصرون الحق»[1].

وفي الآية دلالة على أنهم اليوم في قبضة الله، ومستحقون لعذابه، إلا أنه عز وجل لم يشأ ذلك لحكمته -جل وعلا- الباهرة؛ استدراجاً وتمييزاً بين الخبيث والطيب [2].

وفيه إرشاد للمؤمنين إلى الصبر على ما يلاقونه من المشركين؛ حتى يأتي نصر الله؛ فالطمس والمسخ المتعلقان على الشرط الامتناعي؛ طمس ومسخ في الدنيا لا في الآخرة [3].

والطمس هو: مسخ ضوء العين وإبصارها، وحرف الاستعلاء للدلالة على تمكن الطمس، وإلا فإن فعله يتعدى بنفسه[4].

وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ﴾ أي فأرادوا الاستباق إلى الطريق الواضح المألوف لهم، وفعل «استبقوا» عدي بنفسه على تضمين معنى ابتدروا، أي ابتدروا الصراط متسابقين، أي مسرعين، لما دهمهم، رجاء أن يصلوا إلى بيوتهم قبل أن يهلكوا، لكن كيف يبصرون الطريق وقد طمست أعينهم؟، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ فالمعنى: أضحوا لا يبصرون، أي لو شئنا لعجلنا لهم العقوبة

(١) انظر هذه الأقوال في تفسير ابن كثير(٦/ ٥٧٤) .
(٢) انظر روح المعاني : (١٢ / (٤٣-٤٤).
(٣) انظر التحرير والتنوير (٢٣/ ٥١،٥٢).
(٤) انظر التحرير والتنوير (٢٣/ ٥١،٥٢).

في الدنيا؛ حتى يرتدعوا بها، ويقلعوا عن شركهم .

وقوله: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ ﴾ قال العوفي عن ابن عباس: «أهلكناهم»، وقال السدي: «يعني: لَغَيَّرْنَا خَلْقَهم»(1).

قال الراغب : «المسخ : تشويه الخَلْق والخُلُق وتحويلهما من صورة إلى صورة. قال بعض الحكماء: المسخ ضربان : مسخ خاصّ؛ يحصل في الفينة بعد الفينة، وهو مسخ الخَلْقِ، ومسخ قد يحصل في كلّ زمان، وهو مسخ الخُلُقِ، وذلك أن يصير الإنسان متخلقاً بخلق ذميم من أخلاق بعض الحيوانات؛ نحو أن يصير في شدّة الحرص كالكلب، وفي الشّره كالخنزير، وفي الغمارة كالثّور، قال: وعلى هذا أحد الوجهين في قوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ ﴾ [المائدة : ٦٠] ، وقوله : ﴿لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ ﴾ [يس : ٦٧]، يتضمّن الأمرين وإن كان في الأوّل أظهر»(2).

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ ﴾ أي لحولنا صورهم إلى صور أخرى قبيحة غير صور البشر، عن ابن عباس أي لمسخناهم قردة وخنازير، فالظاهر أن هذا وما قبله لو كان لكان في الدنيا، ﴿ فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ أي: إلى الأمام، إلى ما خرجوا إليه ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ أي: إلى الوراء، رجوعاً إلى ما أتوا منه، بل يلزمون حالاً واحدًا، في مكانهم لا يتقدمون ولا يتأخرون.

والمراد أنهم بكفرهم ونقضهم ما عهد إليهم، أحقّاء بأن يفعل بهم ذلك، لكن الله أمهلهم، ولم يفعل بهم ذلك؛ لشمول رحمته، واقتضاء حكمته إمهالهم (3).

---

(١) انظر روح المعاني : (١٢ / (٤٣-٤٤) ، والتحرير والتنوير (٢٣/ ٥٢،٥١).

(٢) انظر المفردات ص (٧٦٨) .

(٣) انظر تلك الأقوال في تفسير الطبري(٧/ ١١١-١٢٠) وتفسير ابن كثير(٦/ ٥٧٣،٥٧٤)، وروح المعاني: (١٢/ (٤٣-٤٤) ، والتحرير والتنوير (٢٢/ ٢٥٨،٢٥٧)،ومحاسن التأويل (١٤/ ٥٠١٧،٥٠١٦).

كما توعد الرب القدير سبحانه الظالمين من اليهود بإيقاع تلك العقوبة - وهي الطمس- على وجوههم؛ إن هم تمادوا في غيهم، وطغيانهم، ولم يذعنوا للحق، وينقادوا له، فقال تعالى :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [النساء: ٤٧] .

فأمر الله تعالى أهل الكتاب - والمراد بهم اليهود هنا-، بعد أن ذكر من عجائب ضلالهم، وإقامة الحجة عليهم، ما فيه رادع لهم لو كانوا يعقلون - بالإيمان بالقرآن المنزل على محمد ﷺ، الذي فيه تصديق الأخبار التي في كتبهم؛ من البشارة بمحمد ﷺ، ووجوب الإيمان به، وتهددهم إن لم يفعلوا، بقوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ ﴾ [النساء: ٤٧].[1] وقد فعل الله ذلك بأسلافهم قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ٦٠] ، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ [الأعراف: ١٦٦]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ [البقرة: ٦٥] وهذا يقتضي مسخ وجوههم إلى صور القردة ، قال ابن كثير رحمه الله عند آية البقرة هذه : «قول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ﴾ يا معشر اليهود، ما حل من البأس بأهل القرية التي عصت أمر الله وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت والقيام بأمره، إذ كان مشروعًا لهم، فتحيلوا على اصطياد الحيتان في يوم السبت، بما وضعوا لها من الشصوص[2] والحبائل والبرك قبل يوم السبت، فلما

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٢٨٥) ، والتحرير والتنوير (٥/ ٧٨) .

(٢) الشصوص شيء يصاد به السمك ، وقيل حديدة عقفاء يصاد بها السمك . انظر لسان العرب مادة (ش ص ص) (٧/ ٤٨،٤٧) .

جاءت يوم السبت على عادتها في الكثرة نشبت بتلك الحبائل والحيل، فلم تخلص منها يومها ذلك، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت، فلما فعلوا ذلك مسخهم الله إلى صورة القردة، وهي أشبه شيء بالأناسي في الشكل الظاهر وليست بإنسان حقيقة، فكذلك أعمال هؤلاء وحيلهم لما كانت مشابهة للحق في الظاهر ومخالفة له في الباطن، كان جزاؤهم من جنس عملهم .

قال الضحاك، عن ابن عباس: فمسخهم الله قردة بمعصيتهم، يقول: إذ لا يحيون في الأرض إلا ثلاثة أيام، قال: ولم يعش مسخ قط فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل، وقد خلق الله القردة والخنازير وسائر الخلق في الستة أيام التي ذكرها الله في كتابه، فمسخ الله هؤلاء القوم في صورة القردة، وكذلك يفعل بمن يشاء كما يشاء، ويحوله كما يشاء.

وقال العوفي في تفسيره عن ابن عباس: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ جعل لله منهم القردة والخنازير، فزعم أن شباب القوم صاروا قردة والمشيخة صاروا خنازير.

وقال شيبان النحوي، عن قتادة: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ فصار القوم قرودًا تعاوى لها أذناب بعد ما كانوا رجالا ونساء.

وقال عطاء الخراساني: نودوا: يا أهل القرية﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ فجعل الذين نهوهم يدخلون عليهم فيقولون: يا فلان، ألم ننهكم؟ فيقولون برؤوسهم، أي بلى». انتهى كلام ابن كثير رحمه الله. (١)

والطمس في لغة لعرب هو : الدروس والانمحاء، يقال انطمس الطريق: أي درس وانمحى أثره، وانطمس البصر إذا ذهب نوره وضوئه، ومنه ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [يس : ٦٦] ، ويأتي الطمس أيضا بمنزلة المسخ للشيء ويأتي

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ١٥٢،١٥١) .

الطمس بمعنى استئصال أثر الشئ(١). ومنه ما جاء في وصف الدجال بأنه «مطموس العين ليس بناتئة ولا جحراء»(٢).

واختلفت عبارات المفسرين في المعنى المراد في الآية:

فقال بعضهم: معناه: ردها إلى الأدبار، وجعل أبصارهم من ورائهم وخلف رؤوسهم(٣). وعليه فقوله: ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ﴾ يصح أن يكون تفسيراً للطمس.

وقيل: الطمس هنا على حقيقته؛ بأن يسلط الله عليهم ما يفسد محياهم، فتذهب معالم وجوههم، وتصبح مطموسة مستوية، لا أثر لما فيها من حواس ومعالم، ومع ذلك تُرَدُّ إلى الأدبار(٤). قال الرازيّ: «وهذا المعنى إنما جعله الله عقوبة؛ لما فيه من التشويه في الخلقة، والمثلة، والفضيحة، لأنه عند ذلك يعظم الغم والحسرة»(٥).

و قيل: المراد بذلك ذهاب منفعة تلك الحواس، إذ الوجه مجمعها، فلا يسمعون، ولا يبصرون، ولا ينطقون(٦).

وقال العوفي عن ابن عباس: «طمسها أن تعمى، ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ﴾ يقول: نجعل وجوههم من قبل أقفيتهم، فيمشون القهقرى، ونجعل لأحدهم عينين من قفاه»، قال ابن كثير: «وكذا قال قتادة، وعطية العوفي»، وهذا أبلغ في العقوبة والنكال (٧). وقيل: المراد بذلك صرفهم عن الحق، ورجوعهم في الضلال، قال ابن

---

(١) لسان العرب مادة (ط م س) (٦/ ١٢٦)، والتحرير والتنوير (٥/ ٧٩).

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند (٥/ ٣٢٤)، وأبو داوود في سننه- كتاب الملاحم – باب خروج الدجال (٤/ ١١٧،١١٦) رقم (٤٣٢٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٤٥٩).

(٣) انظر تفسير ابن جرير (٧/ ١١٤).

(٤) انظر التحرير والتنوير (٥/ ٧٩).

(٥) انظر تفسير الرازي (١٠/ ١٢٥).

(٦) انظر تفسير ابن جرير (٧/ ١١١)، وابن كثير (٢/ ٢٨٥).

(٧) انظر تفسير ابن جرير (٧/ ١١٢)، وابن كثير (٢/ ٢٨٥).

كثير: «وهذا مثل ضربه الله لهم في صرفهم عن الحق، وردهم إلى الباطل، ورجوعهم عن المحجة البيضاء إلى سبل الضلالة، يهرعون، ويمشون القهقرى على أدبارهم، وهذا كما قال مجاهد: «﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا﴾ يقول: عن صراط الحق، ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ﴾ أي: في الضلالة»، وروي عن ابن عباس، والحسن والسدي نحوه، وقال السديّ: «نمنعها عن الحق، ونرجعها كفاراً»(1).

وقوله ﴿أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِ﴾ يعني: الذين اعتدوا في سبتهم بالحيلة على الاصطياد، وقد مسخوا قردة وخنازير، كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾[البقرة: ٦٥].

قال القاسمي: «وقال بعضهم: الأظهر حمل قوله: ﴿أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ...﴾ إلخ على اللعن المتعارف، قال: ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾[المائدة: ٦٠]، ففصل تعالى بين اللعن وبين مسخهم قردة وخنازير»، ثم قال: «و لا يساعده مقام تشديد الوعيد، وتعميم التهديد، فإن المتبادر من اللفظ الحقيقة، ولا يصار إلى المجاز إلا إذا تعذر إرادتها، ولا تعذر هنا، كما أن المتبادر من اللعن، المشبه بلعن أصحاب السبت؛ هو المسخ، وهو الذي تقتضيه بلاغة التنزيل، إذ فيه الترقي إلى الوعيد الأفظع، ولا ننكر أن تكون هذه التأويلات مما يشمله لفظ الآية، وإنما البحث في دعوى إرادتها دون سابقها، فالحق أن المتبادر من النظم الكريم هو الأول، لأنه أدخل في الزجر، ويؤيده ما روي أن كعب الأحبار أسلم حين سمع هذه الآية، وهو يمسح على وجهه مخافة أن يطمس»أهـ(2).

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٢٨٥،٢٨٦).

(٢) انظر تفسير القاسمي(٧/ ١٢٨٥،١٢٨٤). والأثر رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم. انظر: تفسير ابن جرير (٧/ ١١٩)، وابن كثير (٢/ ٢٨٦، ٢٨٥).

ثم قال القاسمي: «وما أشبه هذه الآية، في وعيدها، بآية (يس)، أعني قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ . وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾[يس: ٦٦ – ٦٧]، بل هذه عندي تفسير لتلك، والقرآن يفسر بعضه بعضاً، فبرح الخفاء والحمد لله»[١].

وقوله: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ أي: إذا أمر بأمر: فإنه نافذ لا محالة، فلا يخالف، ولا يمانع[٢].

(١) انظر محاسن التأويل (٥/ ١٢٨٢-١٢٨٦).

(٢) انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٢٨٥، ٢٨٦)، ومحاسن التأويل (٥/ ١٢٨٢-١٢٨٦)، والتحرير والتنوير (٥/ ٧٨-٨٠).

الفصل الثاني

ما ينال وجوه الظالمين من العذاب عند الموت

إن ساعة الموت والاحتضار لحظات يتلخص فيها عمر الإنسان، ويحل به حينئذٍ؛ من السمات والأمارات ما يتلاءم مع سالف عمره، وما قدم فيه من عمل، وقد يشعر بشيء من ذلك من حوله، وهناك ما لا يشعر به إلا الميت نفسه، فما ينتاب الميت في تلك اللحظات مبناه على ما قدم من عمل؛ فإن كان من أهل الخير والصلاح والاستقامة على شرع الله فكما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[العنكبوت: ٦٩]، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٠]، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ . نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ . نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ﴾[فصلت: ٣٠ - ٣٢]، وكما قال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾[النحل: ٣٢] ، وقد صور لنا القرآن حال الظلمة، وما يصاحب خروج أرواحهم من الحسرة والألم، والعذاب الحسي والمعنوي، بما يكون فيه مزدجر ومرعوى لكل ذي عقل ولب؛ لو استشعر تلك اللحظات، وتفكر فيما يعانيه من يقاسي تلك الحسرات والزفرات، فقال تعالى: ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٣].

أي ولو ترى اللحظات التي يكون فيها الظالمون في سكرات الموت وشدائده وكرباته، والحال حينئذ أن الملائكة ﴿بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ أي : بالضرب الوجيع على

وجوه هؤلاء الظلمة، والعرب تكني عن السوء ببسط اليد، كما قال تعالى: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ﴾ [المائدة: ٢٨]، وكقوله تعالى: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [الممتحنة: ٢].

وقوله: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ﴾ أي من هذه الكربات التي تعانونها وتقاسونها والمعنى أنكم لا تقدرون على ذلك، أو يكون المعنى: أن الملائكة تقول لهم: قدموا أرواحكم، وأخرجوها، من أبدانكم، لنقبضها؛ لأن أرواح الظلمة إذا تبين لها ساعة الاحتضار ما أعد الله لها من أليم عقابه؛ تفرقت في أجسادهم، واستعصت عن الخروج، فتأمرها الملائكة أن تخرج قهراً، كما جاء في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه أن ملك الموت يقول لروح الكافر عند احتضاره: «أخرجي أيتها الروح الخبيثة إلى سموم وحميم، وظل من يحموم، فتتفرق في بدنه، فيستخرجونها من جسده، كما يخرج السفود من الصوف المبلول»(١).

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ الهون: أشد الهوان، وهو الذل والخزي ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ من افتراء الكذب على الله، ونسبة الولد والشريك له، ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ إذا تليت عليكم، وتأنفون من اتباعها، والانقياد لها(٢).

والدليل على أن بسط الملائكة أيديهم لضرب وجوه الظلمة عند الموت قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [الأنفال: ٥٠]، أي ولو عاينت يا محمد الكفار حال توفي

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٤/ ٢٨٧)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣/ ٣٨١)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٣٥٦)، وصححه الألباني كما في صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٢١٩)

(٢) انظر العذب النمير (١/ ٥١٦ - ٥١٩).

الملائكة لأرواحهم؛ لرأيت أمراً عظيماً هائلاً فظيعاً منكراً، فجواب (لو) محذوف لتفظيع الأمر، وتهويله؛ إذ تضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم، ويقولون لهم – جمعاً بين العذاب الحسي والمعنوي للبدن والروح – ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي: ويقولون لهم ذلك تبشيراً لهم بعذاب الآخرة(1).

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ ذلك إشارة إلى ما تقدم من الضرب والعذاب ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي بما اقترفتم من الكفر والمعاصي ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾. أي: فيعاقبهم بلا جرم وخطيئة، وبلا استحقاق وسبب، بل هو الحكم العدل، الذي لا يجور، كما قال تعالى في الحديث القدسي: ((**يا عبادي؛ إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا، يا عبادي إنما هي أعمالكم؛ أحصيها لكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه**(2)))(3).

ومما يدل على أن العذاب ينال وجوه الظلمة حال الوفاة قوله تعالى عن المرتدين الذين كرهوا ما نزل الله: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ**﴾ [محمد: ٢٧]، أي كيف حالهم حينئذ وكيف يدفعون ضر الردة عن نفوسهم، قال ابن عاشور: «ولما جعل هذا العذاب محققاً وقوعه؛ رتب عليه الاستفهام عن حالهم؛ استفهاماً مستعملاً في معنى تعجب المخاطب من حالهم عند الوفاة، وهذا التعجب مؤذن بأنها حالة فظيعة، غير معتادة، إذ لا يتعجب إلا من أمر غير معهود، والسياق يدل على الفظاعة، كما يشعر به حذف متعلق (كيف)؛ أي

---

(١) انظر الكشاف (٢/ ١٦٣) والتحرير والتنوير (٢/ ٥٤٠).

(٢) رواه مسلم في صحيحه – كتاب البر والصلة – باب تحريم الظلم (٣/ ١٩٩٤) رقم (٢٥٧٧).

(٣) انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٢٠، ٢١) ومحاسن التأويل للقاسمي (٨/ ٣٠١٥، ٣٠١٦).

كيف يصنعون ويحتالون»[1] .

﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾ أي التي أعرضوا بها عن طاعة الله، والانقياد والخضوع له، ﴿وَأَدْبَارَهُمْ﴾ التي قابلوا بها أمر الله ونهيه، فأعرضوا عن التكاليف الشرعية، والجهاد في سبيل الله، وطاعة الله، وطاعة رسوله، لا شك أنه سيصاحب الوفاة حينئذ من العذاب ما الله به عليم .

وقد صور لنا الحق -سبحانه وتعالى- شيئاً من فظاعة ذلكم العذاب، الذي ينال وجوه الظلمة عند الموت في آية أخرى؛ فقال جل شأنه - في وصف المنافقين، المعوِّقين عن القتال في سبيل الله، وأنه يعتري وجوههم عند نزول آيات الأمر بالجهاد، أو عند ما يحين القتال، وتنزل آيات الأمر بالجهاد من الكرب والشدة، كالذي يعتري وجه المحتضر، وهو يعاني كربات الموت حين نزوله -: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا . أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٨، ١٩]

﴿قَدْ﴾ للتحقيق[2]، ﴿يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ أي المثبطين عن رسول الله ﷺ، وعن القتال معه وهم المنافقون، ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ أي أصحابهم، وخلطائهم، وعشرائهم، فهي أخوة الصحبة والجوار، ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أي: تعالوا إلى ما نحن فيه من الإقامة في الظلال والثمار، ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لا يشاركون في الحرب والقتال، إلا قليلاً؛ ليكون لهم عذراً في أن لهم حق في الغنيمة؛ إذ لم يتخلفوا

(١) انظر التحرير والتنوير (٢٦/ ١١٨) .

(٢) انظر روح المعاني (١١/ ١٦١) ، والتحرير والتنوير (٢١/ ٢٩٣) .

عن القتال[1]، ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ أي بخلاء بالمعونة، والمودة، والنفقة، والنصرة، وبكل ما فيه منفعة لكم، ﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ ﴾ أي المتوقع من العدو فهم أجبن قوم، ﴿ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ ﴾ أي: بأحداقهم يميناً وشمالاً، دون أن تطرف؛ من شدة الخوف، ﴿ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ أي: كنظر المغشي عليه من الموت، وتدور أعينهم كدوران عيني الذي يعاني سكرات الموت؛ لذهوله، وشدة خوفه وجزعه، لأنهم لم يحضروا على نية خالصة صالحة، ولكن رياءً وسمعة، وطلباً للمغنم، بل إن حالهم عند الخوف، وحضور القتال في سبيل الله؛ لخلو قلوبهم من الإيمان وعدم إخلاصهم وإذعانهم لله تعالى – كحال من يحتضر– فيعانون من العذاب الذي يظهر أثره على وجوههم آنذاك، كما يعاني من يكابد سكرات الموت[2].

وفي هذا دلالة على أن العبد ساعة الاحتضار يعاني ما يعاني من سكرات الموت، حتى وإن كان صالحاً، ولهذا كان ﷺ يقول وهو يعاني تلك اللحظات: ((**لا إله إلا الله إن للموت لسكرات**))[3]، فإذا كانت هذه حال الأخيار عند سكرات الموت؛ فما يعانيه الظلمة يزداد ويشتد على قدر ظلمهم وطغيانهم.

﴿ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ ﴾ أي: زال وحل الأمن، ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ أصل السلق في لغة العرب: بسط العضو وحَدِّهِ؛ لقهر الغير؛ يداً كان أو لساناً، والمعنى أي: بسطو فيكم ألسنتهم الذربة؛ بالسب والأذى والتنقص، وخاصموكم من أجل الغنيمة أشد مخاصمة وأبلغها.

---

(١) انظر معاني القرآن للزجاج (٤/ ٢٢١،٢٢٠)، وتفسير ابن كثير (٦/ ٣٩١).

(٢) انظر التحرير والتنوير (٢١/ ٢٩٧،٢٩٦) وروح المعاني (١١/ ١٦٢).

(٣) رواه البخاري من حديث أم المؤمنين عائشة ~، انظر: صحيح البخاري مع الفتح، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٨/ ١٤٤)، حديث رقم (٤٤٤٩).

أو يكون المعنى تكلموا كلاماً فصيحاً بليغاً، وادعوا لأنفسهم المقامات العالية؛ من الشجاعة، وهم يكذبون، ومنه يقال: خطيب مسلاق؛ إذا كان بليغاً في خطبته[١]، ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ أي خاطبوكم وهم أشحة على المال والغنيمة، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ﴾ أي: حقيقة أمرهم ليسوا بمؤمنين، وإن أظهروا الإيمان نفاقاً، ﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: أبطل أجرها وثوابها إذ لم تكن خالصة لله، ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي هيناً سهلاً، فلا يعجزه شيء -سبحانه وتعالى-؛ جزاءً وفاقاً لهم على سوء سريرتهم[٢].

ومثل هذه الآية في المعنى والدلالة على حال المنافقين عند نزول آيات الله الآمرة بالقتال، وأنهم آنذاك يعانون ألواناً من العذاب المعنوي، الذي يظهر أثره على وجوههم، كحال من يعاني سكرات الموت؛ قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ . طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢٠ - ٢١].

فالمؤمنون الصادقون تمنوا شرعية الجهاد ليتقربوا إلى الله تعالى ببذل أرواحهم رخيصة في سبيل الله، فلما فرضه الله ﷻ وأمر به ضاق الأمر بالمنافقين ؛ لأن تظاهرهم بالإسلام ربما أجأهم إلى الخروج مع المسلمين للقتال، وهذا أمر ليس بالهين؛ لأن فيه تعريضاً لأرواحهم للهلاك الذي لا يترتب عليه نفع لهم في الحياة الآخرة، إذ لم يكونوا مؤمنين باطناً[٣]، ولهذا وصف الله حالهم بقوله : ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ

(١) انظر: مادة (س ل ق) في: لسان العرب (١٠/ ١٢٩ - ١٦٠)، والقاموس المحيط ص (١١٥٤).

(٢) انظر تفسير الآية في : معاني القرآن للزجاج (٤/ ٢٢٠ ، ٢٢١) وتفسير ابن كثير (٦/ ٣٩١) وروح المعاني للألوسي (١١/ ١٦٢ ، ١٦٣) .

(٣)انظر التحرير والتنوير (٢٦/ ١٠٦) .

سُورَةٌ مُّحۡكَمَةٌ ﴾ أي: مبينة واضحة لا تقبل نسخاً ولا تأويلاً، ﴿ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ ﴾ أي: الأمر بجهاد الكافرين، ﴿ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي: شك في الدين وضعف في اليقين وهم المنافقون،[1] ﴿ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِ ﴾ أي: من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء، ينظرون إليك يا محمد كنظر المحتضر، الذي لا يطرف بصره، والمراد أنهم يشخصون نحوك بأبصارهم، وينظرون إليك نظراً شديداً؛ لشدة كرههم للقتال إذ فيه ما يكرهون من عز الإسلام والمسلمين، وتعريض أرواحهم للهلاك[2]، ﴿ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴾ اسم تفضيل؛ أي كان الأولى بهؤلاء المنافقين بدلاً من النظر إليك نظر المغشي عليه من الموت ﴿ طَاعَةٌ وَقَوۡلٌ مَّعۡرُوفٌ ﴾ أي أن يسمعوا ويطيعوا في الحال الراهنة، ﴿ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ ﴾ أي جد الحال وحضر القتال، ﴿ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ ﴾ أي أخلصوا له النية ﴿ لَكَانَ خَيۡرًا ٱلَّذِينَ ﴾ وعلى هذا القول فقوله: ﴿ أَوۡلَىٰ ﴾ مبتدأ، و ﴿ طَاعَةٌ ﴾ خبره، و ﴿ لَهُمۡ ﴾ متعلق بأولى، واللام في ﴿ لَهُمۡ ﴾ بمعنى الباء، وقيل ﴿ أَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴾ كلمة توعد وتهديد؛ أي قاربهم هلاكهم، وقيل ﴿ أَوۡلَىٰ ﴾ اسم تفضيل؛ بمعنى أحق وأحرى، خبر لمبتدأ محذوف أي: العقاب أجدر بهم وأحرى، ويكون قوله: ﴿ طَاعَةٌ ﴾ مبتدأ، و﴿ وَقَوۡلٌ مَّعۡرُوفٌ ﴾ معطوف عليها، والخبر محذوف، تقديره أي: أمثل بكم من غيرهما[3].

---

(١) انظر محاسن التأويل (١٥/ ٥٣٨٤).

(٢) انظر صفوة البيان (٢/ ٣٢٩).

(٣) انظر تفسير ابن كثير (٧/ ٢٩٩ ، ٣٠٠) ومحاسن التأويل (١٥/ ٥٣٨٤ ، ٥٣٨٥) وصفوة البيان (٢/ ٣٢٩) والتحرير والتنوير (٢٦/ ١٠٦ – ١١٠).

الفصل الثالث

ما ينال وجوه الظالمين من العذاب في الحياة الآخرة

لما كان الوجه عنوان الطاعة والانقياد، أو الإباء والاستكبار، وهو مجمع الحواس التي تثمر في القلب الإيمان والاعتبار؛ جعل الله عز وجل لخصوص هذه الجارحة نصيبها من العذاب أو النعيم يوم القيامة؛ جزاءً وفاقاً .

فكما أن أثر الطاعة والإيمان الذي في القلب يظهر على الجوارح - ومن أهمها الوجه- فترى وجه المطيع ذليلاً خاشعاً مستكيناً لله ﷻ، فتنعكس عليه هذه الطاعة نورا وإشراقا في هذه الحياة الدنيا، ويوم القيامة ينال من النعيم والنضرة والحسن والبهاء أعظمها؛ بقدر ما كان عليه من ذل واستقامة واستكانة لله -تعالى- في هذه الدنيا، مما يجعله مسفراً مستنيراً، كما قال تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ [عبس: ٣٨،٣٩]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ . عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ . تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [المطففين: ٢٢،٢٤]، وقال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ . لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ . فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ . لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴾ [الغاشية: ٨ - ١١] .

ومن تكبر عن طاعة الله تعالى، والذل والانقياد له في هذه الدنيا - وعنوان ذلك يظهر في الوجه -؛ فإنه يناله من الذل والهوان والعذاب والنكال يوم القيامة بقدر ما يكون عليه في هذه الدنيا من إباء واستكبار، ولهذا ذكر الله ﷻ لنا ألواناً من العذاب الذي ينال وجوه الظلمة يوم القيامة؛ سواء منها ما ينال عموم الوجه، أو ما ينال بعض حواسه وأجزاءه؛ جزاء وفاقا؛ لأنها وجوه عطلها أصحابها عن الفائدة التي خلقها الله من أجلها؛ ألا وهي طاعة الله تعالى، وشكره، والخضوع له، ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ

﴿وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[النحل: ٧٨].

وسوف يكون الحديث في هذا الفصل – بإذن الله تعالى – في أربعة مباحث:

المبحث الأول: تسليط العذاب على وجوه الظلمة

لقد كرم الله الإنسان على سائر المخلوقات في هذه الدنيا بأن جعل قامته منتصبة، وجعل وجهه في أعلى جزء من بدنه، وهو الرأس، بعيداً عن الأرض، على خلاف بقية الحيوانات التي وجوهها منكوسة إلى الأرض، وقريبة منها .

فكلما عظم تواضع الإنسان لربه كلما أكثر من الخفض والتطامن بوجهه، البعيد عن الأرض؛ ذلاً واستكانة لله تعالى، وبذلك يزداد رفعة وقرباً وعلواً من ربه، كما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء**))[1]، وفيه عنه ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((**مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلاَّ رَفَعَهُ اللَّهُ**))[2].

وأما إذا تكبر ، وتجبر ، وأبى أن يتطامن لربه وخالقه ، ويخضع له ؛ فإنه يجازى بنقيض ذلك يوم القيامة؛ بأن يسلط العذاب على هذا الوجه الذي أبى أن يذل لخالقه، قال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾[الأنبياء: ٣٩]، وجواب لو في الآية محذوف دلت عليه الآية قبلها ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٣٨][3]، فهم يقولون ذلك استبعاداً وتكذيباً بيوم القيامة، أي لو تيقنوا أن العذاب

---

(١) صحيح مسلم – كتاب الصلاة – باب ما يقال في الركوع والسجود (١/ ٣٥٠) رقم (٤٨٢).

(٢) صحيح مسلم – كتاب البر والصلة والآداب – باب استحباب العفو والتواضع (٤/ ٢٠٠١) رقم (٢٥٨٨).

(٣) انظر معاني القرآن للزجاج (٣/ ٣٩٢)، ومحاسن التأويل (١١/ ٤٢٧٣).

واقع بهم لا محالة؛ لما استعجلوا ، فلا يستطيعون دفعه آنذاك عن أشرف أعضائهم ؛ وهو الوجه، فتقديم ذكر الوجه لشرفه، ولكون الدفع عنه أهم من غيره، فمن عجز عن دفع الأذى عن وجهه فهو أعجز عن دفعه عن باقي الجسد، ﴿ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ ﴾ لأن العذاب محيط بهم من جميع جهاتهم، كما قال -جل شأنه-: ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ . يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٤،٥٥]، وقال تعالى: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف : ٤١].

﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أي ليس لهم ناصر يدفع عنهم العذاب لا من أنفسهم ولا من غيرهم(١).

المبحث الثاني : هيئة وجوه الظلمة

إن الذل والخضوع لهو عنوان وجوه الخليقة جمعاء يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا .وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ [طه: ١٠٩-١١١].

ففي ذلك اليوم الذي لا تنفع فيه الشفاعة عند الله إلا شفاعة من أذن له الرحمن أن يشفع، ورضي له قوله، كما قال تعالى: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٦] تكون أجساد العباد وذواتهم ذليلة خاشعة بين يدي الله تعالى، ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾

---

(١) انظر تفسير الطبري (١٦/ ٢٧٦) وابن كثير (٥/ ٣٣٧) وابن عطية (٤/ ٨٣) ومحاسن التأويل (١١/ ٤٢٧٣) .

أي: أحاط علمه بالخلائق كلهم ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾[البقرة: ٢٥٥]، وقوله ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ أي: خضعت وذلت واستسلمت وجوه الخلائق لجبارها، ﴿لِلْحَيِّ﴾ الذي لا يموت، ﴿ٱلْقَيُّومِ﴾ الذي لا ينام، وهو قيم على كل شيء يديره ويحفظه، فهو الكامل في نفسه، الذي كل شيء فقير إليه لا قوام له إلا به[(١)]. وأصل العُنُوّ الذل، يقال منه: عنا وجهه لربه يعنوا عنواً أي خضع له وذل، ولذلك قيل للأسير: عانٍ؛ لذلة الأسر، أي ذل الناس بجميع أجسادهم، وخضعوا الله تعالى في ذلك اليوم خضوع العناه؛ أي الأسارى، وإنما خصت الوجوه بالذكر لعظم ظهور أثر الذل عليها[(٢)].

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ أي خسر ولم يظفر بحاجته ومطلبه ﴿مَنْ حَمَلَ﴾ إلى موقف القيامة ﴿ظُلْمًا﴾ أي شركاً، وعملاً بمعصية الله؛ لأن الله سيقتص لكل مظلوم ممن ظلمه[(٣)].

وإن كان الذل والخوف والفزع يعتري جميع الخلق يوم القيامة، لكنه بالنسبة لعباد الله المؤمنين الموحدين مؤقت؛ يزول عنهم إذا حلوا بأرض المأمن، عندما يقال لهم: ﴿... ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾[الأعراف: ٤٩]، وعندما يقال لهم: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ . ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ . ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾[الزخرف: ٦٨-٧٠]، وإن كانت هذه البشارة والطمأنينة أتتهم مسبقاً على ألسن الرسل، وعند قبض أرواحهم

(١) انظر تفسير ابن كثير (٥/ ٣١١).
(٢) انظر تفسير الطبري (١٦/ ١٧٢)، ومعاني القرآن للزجاج (٣/ ٣٧٧)
(٣) انظر تفسير الطبري (١٦/ ١٧١ – ١٧٤) وابن كثير (٥/ ٣١١) ومعاني القرآن للزجاج (٣/ ٣٧٧).

على ألسن الملائكة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]، لكن تحقق الأمن وكماله لا يحصل لهم إلا بدخولهم الجنة؛ لما يسبق ذلك من مشاهدة أهوال يوم القيامة العظام.

أما الظلمة العصاة الكافرون فإن الذل ملازم لهم في الحياة الدنيا، وفي حياة البرزخ، وفي الآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤]، وفي الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ قال: ((عذاب القبر))(١).

وعند بعثهم من قبورهم تكسوهم الذلة والصغار قال تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ . أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ . أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ . قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ . فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الصافات: ١٥ – ١٩]، ﴿وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي وأنتم أذلاء صاغرون أشد الصغار(٢)، ويلازمهم الذل والصغار، حتى ينالون أعظمه وأفجعه وآلمه، في نار جهنم -والعياذ بالله-، كما قال جل شأنه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه كما في الإحسان (٧/ ٣٨٩،٣٨٨) والحاكم في المستدرك (١/ ٣٧٩ – ٣٨١) وعبد الرزاق في مصنفه (٣/ ٥٦٧ – ٥٦٩) رقم (٦٧٠٣) وابن أبي شيبه في مصنفه (٣/ ٣٨٣ ، ٣٨٤) وهناد بن السري في الزهد (١/ ٢٠٤) رقم (٣٣٨) والطبري في تفسيره (١٦/ ١٩٧) ، وحسّن الشيخ الأرناؤوط إسناده في حاشية الإحسان ، وأخرج له الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٨١) شاهدا من حديث أبي سعيد رضي الله عنه وصححه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي ، وأورده ابن كثير في تفسيره (٥/ ٣١٧) من طريق البزار وقال : إسناد جيد .

(٢) انظر تفسير الطبري (١٩/ ٥١٧) .

وسوف يكون الحديث في هذا المبحث في المطلبين الآتيين :-

المطلب الأول: ذلّ وجوه الظالمين وهوانها :

وهذا وصف ملازم لوجوه الظلمة في عرصات يوم القيامة، وجميع مواقفه؛ حتى ينالوا منه غايته إذا دخلوا نار جهنم وبئس القرار، كل ذلك بسبب ظلمهم، وعصيانهم لأمر الله، كما قال تعالى ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴾ أي خبر يوم القيامة سميت بالغاشية؛ لأنها تغشى الناس وتعمهم بأهوالها، ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴾ وهي وجوه الظلمة من الكفار والعصاة، ﴿ خَٰشِعَةٌ ﴾ أي ذليلة؛ لما حل بأصحابها من الخزي والهوان[1].

وذلكم الذل يغشى وجوه الظلمة بقهر وهوان يظهر أثره على تلك الوجوه سواداً وقبحاً، لا يستطيعون دفعه، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ﴾[يونس: ٢٧].

فمن كمال عدل الله تعالى مع من خالفوا أمره، وخرجوا عن طاعته، وهم من وصفهم بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ أي: الشرك والمعاصي، ﴿ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا ﴾ أي: لهم جزاء سيئة بمثلها، لا تضاعف عليهم؛ لكمال عدل الرب – سبحانه وتعالى– ﴿ وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾، والرهق: غشيان السوء بقهر[2]، أي: والحال أنه تعتريهم ذلة وهوان وخوف من معاصيهم، وعاقبتها الوخيمة التي ينتظرونها، ﴿ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ أي: مانع وواق، يمنعهم ويعصمهم من عذاب الله.

المطلب الثاني: أمارات ذل وجوه الظالمين: وتحته ثلاث مسائل :-

---

(١) انظر تفسير الطبري (٢٤/ ٣٢٦ ، ٣٢٧) وابن كثير (٨/ ٤٠٦) .

(٢) انظر المفردات مادة : (ر ه ق) ص (٣٦٧) .

المسألة الأولى / سواد وجوه الظالمين : ولهذا قال جل شأنه في آية يونس المتقدمة: ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًا﴾ أي لشدة سوادها -والعياذ بالله- من الذل الذي يغشاها، كأنها ألبست ﴿قِطَعٗا﴾ أي أجزاء من الليل المظلم الحالك السواد، هذا على قراءة الجمهور -بتحريك الطاء- جمع قطعة، وعليه فقوله: ﴿مُظۡلِمًا﴾ حال من الليل، وقرأ ابن كثير والكسائي بإسكان الطاء ﴿قِطۡعًا﴾[1].

قال أهل اللغة : القطع ظلمة آخر الليل، وقال بعضهم: أي طائفة من الليل[2]، وقال الأخفش: في قوله ﴿بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾[الحجر: ٦٥]، أي بسواد من الليل، وعلى هذه القراءة فقوله ﴿مُظۡلِمًا﴾ يكون نعتاً لقوله: ﴿قِطۡعًا﴾ مبالغة في وصف وجوههم بالسواد[3].

وفي آية أخرى يذكر الله عز وجل لنا صورتين متقابلتين لأهل الكفر وأهل الإيمان؛ جمعاً بين الترغيب والترهيب، وبياناً لأثر الذل والعز؛ سوادا في وجوه الظلمة الكفرة، وبياضا في وجوه الأتقياء البررة، فقال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ . وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[آل عمران: ١٠٦ – ١٠٧].

فوصف وجوه الظلمة من الكافرين يوم القيامة بالسواد الذي يعلوها؛ لشدة ما هي فيه من الذل والهوان؛ لما تقاسيه من ألوان العذاب، ولأنها وجوه لم تشرق وتستنير بنور الإيمان في هذه الحياة الدنيا، بينما وجوه المؤمنين بيضاء مشرقة مستنيرة

(١) انظر التيسير ص (١٢١) .

(٢) انظر مادة : (ق ط ع) في لسان العرب (٨/ ٢٧٧) ، والقاموس المحيط ص (٩٧٢) .

(٣) انظر الدر المصون (٦/ ١٨٦ ، ١٨٧) والتيسير ص (١٢١) وتفسير ابن كثير (٤/ ٢٠٠) ومحاسن التأويل (٩/ ٣٣٤٣) .

بنور الإيمان والتقوى، التي كان عليها أصحابها.

ونظيرها في المعنى قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ .وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ . تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ . أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾[عبس: ٣٨-٤٢].

فانظر إلى هذه المقابلة بين وجوه الأتقياء البررة، التي تكون مضيئة مشرقة مسرورة بما أعطاها الله من النعيم، راجية المزيد، وبين وجوه الظالمين الكفرة التي يعلوها الغبار والكدرة، وتغشاها الظلمة والسواد؛ كناية عن ما حل بها من شدة الغم والهم والكآبة والذل والهوان والعياذ بالله(١).

وانظر إلى هذه الصورة البديعة، والتعبير القرآني البليغ، في وصف عظيم الذل الذي يكسو وجوه الظالمين يوم القيامة، وهم خاضعون مستكينون، يسترقون النظر إلى جهنم؛ لشدة ما يعلو وجوههم من الذل، فقال تعالى: ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ ۗ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ . وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾[الشورى: ٤٤،٤٥].

فيخبر سبحانه عن كمال قدرته، وأن ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فمن كتب الله عليه الضلالة، وخذله عن الرشاد، لأسباب قامت به، استوجب بها ذلك؛ فليس له من ولي يهديه سبيل الرشاد.

﴿ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ ترى منهم منظراً فظيعاً، يظهرون فيه الندم والحزن الشديد على ما سلف، ﴿ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴾ استعتاب في غير وقته، وطلب للرجعة إلى الدنيا بأي طريق كان؛ ليعملوا عملاً صالحاً، كما

(١) انظر مادة : (غ ب ر) في: المفردات ص (٦٠١) .

أخبر الله عنهم وهم في النار بقوله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾[فاطر: ٣٧].

﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ أي على النار ﴿ خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ ﴾ من الخشوع وهو الانكسار والتواضع، أي خاضعين متضائلين، خاشعة أجسامهم؛ بسبب الذل والهوان الذي قد اعتراهم بما أسلفوا من عصيان الله، ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ أي ينظرون إلى النار مسارقة؛ خوفاً منها، يبتدئون نظرهم بتحريك ضعيف لأجفانهم، كما يُرى المصبور(١). ينظر إلى السيف، وهكذا الناظر إلى المكاره؛ لا يقدر على أن يفتح أجفانه بكمالها، ويملأ عينيه منها، كما يفعل من ينظر إلى المحابِّ، والذي يحذرونه واقع بهم لا محالة، وهو أعظم مما في نفوسهم(٢).

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ أي الخسارة الكبرى التي لا جبر لكسرها، ولا استدراك لفائتها، ﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ فذهب بهم إلى النار والعذاب الأليم، وفاتهم من الجنة النعيم المقيم، ﴿ وَأَهْلِيهِمْ ﴾ أي: قراباتهم وأحبابهم وذويهم، ففرق بينهم وبينهم، ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾ أي دائم سرمدي أبدي لا خروج لهم منه ولا محيد لهم عنه(٣).

المسألة الثانية / خشوع وجوه الظالمين: كما يتبين ذلك من آية الشورى السالفة الذكر، والوجه أكثر الجوارح من البدن يظهر عليه أثر الخشوع، وأكثر ما يظهر من الوجه على العينين، لهذا قال سبحانه ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ ﴾، ثم قال تفسيراً لهذا الخشوع ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ أي : ذليل كما قال ابن عباس رضي الله

---

(١) الصبر : نصب الإنسان للقتل . انظر لسان العرب مادة (ص ب ر) ، (٤/ ٤٣٨)

(٢) انظر روح المعاني(١٣/ ٥٠)

(٣) انظر تفسير الطبري (٢٠/ ٥٢٩ – ٥٣٤) وابن كثير (٧/ ٢٠١ ، ٢٠٢) ومحاسن التأويل (١٤/ ٥٢٥٢) وتفسير السعدي (٤/ ٤٥٠) وروح المعاني للألوسي (١٣/ ٥٠ ، ٥١) .

عنهما، ومجاهد رحمه الله[١]، ولهذا جاء في كثير من الآيات تقييد الخشوع بالأبصار، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ . خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ [القلم: ٤٢ – ٤٣]، وذلك يوم القيامة – كما صح عن النبي ﷺ – حين يأمر الله تعالى كل أمة أن تلحق بما تعبد، فيتساقطون في النار، فيبقى من كان يعبد الله من بر وفاجر، فيكشف الرب –سبحانه وتعالى– عن ساقه؛ فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياءً وسمعة، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً[٢].

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي خاضعة أبصارهم، تغشاهم ذلة شديدة من عذاب الله عز وجل، وإنما نسب الخشوع؛ للأبصار لظهور أثره عليها، وإلا فالذلة والهوان يعتري جميع أبدانهم بسبب إجرامهم وتكبرهم في الدنيا، فعوقبوا بنقيض ما كانوا عليه في الدنيا، كما أنهم لما دعوا إلى السجود لله في الدنيا امتنعوا منه، مع صحتهم وسلامتهم، كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه في الآخرة، عند تجلي الرب –سبحانه وتعالى–، فيسجد له المؤمنون، ولا يستطيع ذلك الظلمة المنافقون.

﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ أي كانوا في الحياة الدنيا يدعون على ألسن الرسل وأتباعهم إلى الخضوع لله عز وجل، ولحكمه وأمره الذي عنوانه سجود الوجه، وهم سالمون في أبدانهم، لا يمنعهم من ذلك مانع، ولا يحول بينهم وبينه حائل، لكنهم أَبَوْا عِناداً واستكباراً[٣].

---

(١) انظر تفسير الطبري (٢٠/ ٥٣٢) وابن كثير (٧/ ٢٠١).

(٢) متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه انظر صحيح البخاري – مع الفتح – كتاب التفسير – سورة النساء – باب إن الله لا يظلم مثقال ذرة (٨/ ٢٤٩، ٢٥٠) حديث (٤٩١٩)، وصحيح مسلم – كتاب الإيمان – باب معرفة طريق الرؤية (١/ ١٦٧ – ١٧١) حديث (٣٠٢).

(٣) انظر تفسير الطبري (٢٣/ ١٨٦ – ١٩٨) وابن كثير (٨/ ٢٢٤، ٢٢٥).

ومثلها في المعنى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ . خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾[المعارج: ٤٣،٤٤]، وقد دلت هذه الآية على أن ما يعلو وجوه الظلمة يوم القيامة من الذل والهوان والعذاب؛ هو ملازم لهم في جميع مراحل يوم القيامة، حتى يؤولوا إلى العذاب والذل الأكبر، والعياذ بالله، في نار جهنم مجمع كل خزي وهوان، أجارنا الله منها.

فمنذ خروجهم من ﴿ ٱلْأَجْدَاثِ ﴾ وهي القبور مسرعين؛ استجابة لداعي الرب -سبحانه وتعالى- لموقف الحساب، كأنهم في إسراعهم إلى الموقف ﴿ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ أي: إلى صنم يهرولون كما هي حالهم في الدنيا إذا عاينوه يبتدرون أيهم يستلمه أولاً[(١)]، ﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ ﴾ أي خاضعة ذليلة لا يرفعونها لما هم فيه من الخزي والهوان ، ﴿ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ أي يغشاهم الهوان الشديد في مقابلة استكبارهم في الدنيا عن طاعة الله ، ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾ أي: يوم القيامة، الذي وصفه الله لهم في الدنيا، ووعدهم أنهم لاقوه، وكانوا يكذبون به، ولا يقيمون لذلك وزناً[(٢)] .

ومما يدل على ذلّ وجوه الظَّلَمَة، وَهَوَانِها يوم القيامة، وظهور أثر ذلك على أبصارهم؛ قول الحق -جل شأنه- : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ . خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾[القمر: ٦ ، ٧].

فيأمر الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً ﷺ بأن يعرض عن المشركين من قومه، بعد أن بلغهم دين الله، وهم الذين وصفهم الله بقوله: ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾[القمر: ٢] ، فإنهم يوم يدعو داعي الله ﴿ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴾ وهو موقف القيامة ، أي : الأمر المنكر الفظيع الشديد ؛ وهو موقف الحساب وما فيه

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٨/ ٢٥٧) .

(٢) انظر تفسير ابن جرير (٢٣/ ٢٨٤ – ٢٨٧) وابن كثير (٨/ ٢٥٧) وصفوة البيان (٢/ ٤٦٥).

من البلاء والزلازل والأهوال[1]. وحالهم آنذاك ﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ ﴾ أي ذليلة خاضعة؛ لشدة الهول والفزع.

والمراد أن جميع أجسامهم خاشعة ذليلة، وإنما وصفت الأبصار بذلك لأن أثر الذل والعز أكثر ما يظهر ويبين في الأبصار، ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي القبور، جمع جدث، ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ أي كأنهم في كثرتهم وانتشارهم وسعيهم إلى موقف الحساب جراد منتشر، ولهذا قال: ﴿مُّهْطِعِينَ ﴾ أي: مسرعين، ﴿إِلَى ٱلدَّاعِ ﴾ لا يخالفون ولا يتأخرون، ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ أي صعب شديد؛ لما يعانون من أهواله، ويتوقعون فيه من سوء العاقبة[2].

ومما يدل أيضاً على ذل وجوه الظلمة يوم القيامة والذي يظهر أثره على أبصارهم قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ . تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ . قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ . أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ﴾ [النازعات: ٦ – ٩].

فعندما يأمر الله عز وجل إسرافيل بالنفخ في الصور النفخة الأولى وهي الراجفة ثم النفخة الثانية وهي الرادفة ففي الأولى يموت الخلائق وفي الثانية يبعثون[3]، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ أي خائفة شديدة القلق والاضطراب لشدة الفزع، ﴿ أَبْصَٰرُهَا ﴾ أي أبصار أصحابها ﴿ خَٰشِعَةٌ ﴾ أي ذليلة حقيرة؛ مما علاها من الذل والكآبة والحزن؛ مما عاينت من أهوال يوم القيامة[4].

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٧/ ٤٥١).
(٢) انظر تفسير الطبري (٢٢/ ١١٦ – ١١٩) وابن كثير (٧/ ٤٥١).
(٣) انظر معاني القرآن للزجاج (٥/ ٢٧٨).
(٤) انظر تفسير ابن كثير (٨/ ٣٣٦).

المسألة الثالثة / شخوص أبصار وجوه الظالمين وعدم طرفها: كما قال جل شأنه: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ . مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ [إبراهيم: ٤٢،٤٣]، فالله لا يغفل عن الظالمين ، ولا يهمل أعمالهم، ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ أي إنما يؤخر عذابهم وعقابهم؛ إلى يوم تشخص فيه أبصار الخلق؛ وذلك يوم القيامة، فلا ترتد إليهم أبصارهم، ولا تطرف أعينهم؛ لشدة الهول والفزع.

﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ أي: مسرعين إلى الداعي بذلة واستكانة، كإسراع الأسير الخائف، ﴿مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ ﴾ أي: رافعيها إلى السماء، مع إدامة النظر بأبصارهم إلى ما بين أيديهم، من غير التفات إلى شيء[1]. قال في اللسان: «وفي التنزيل ﴿مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ ﴾، والمُقْنِعُ الذي يَرْفَعُ رأْسه ينظر في ذلّ، والإِقْناعُ رفع الرأْس، والنظر في ذُلٍّ وخُشُوعٍ، وأَقْنَعَ فلان رأْسَه وهو أَن يرفع بصره ووجهه إِلى ما حِيالَ رأْسِه من السماء، والمُقْنِعُ الرافِعُ رأْسَه إِلى السماء»[2].

﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي لا تنغلق أجفانهم التي يكون فيها الطرف، فنظرهم دائم لا يطرفون لحظة.

﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ أي قلوبهم فارغة، خالية من الفهم، لا تعي شيئاً، ولا تعقل؛ من شدة الخوف والدهشة. وقال قتادة وجماعة: «إن أمكنة أفئدتهم خالية؛ لأن القلوب لدى الحناجر قد خرجت من أماكنها؛ من شدة الخوف، وقال بعضهم: ﴿هَوَآءٌ ﴾ خراب لا تعي شيئاً»[3].

(١) انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٤٣٣) ، وصفوة البيان (١/ ٤٥١) .
(٢) انظر اللسان مادة : (ق ن ع) (٨/ ٢٩٩) .
(٣) انظر تفسير الطبري (١٣/ ٧١٣) وابن كثير (٤/ ٤٣٣).

المبحث الثالث: صنوف العذاب الذي ينال وجوه الظالمين

إن المتأمل لآيات القرآن الكريم يرى أن العذاب الذي يسلط على وجوه الظلمة يوم القيامة ليس من جنس واحد، بل هو أصناف وأنواع، تزيد وتنقص، كمّاً وكيفاً، بحسب ما كان عليه أصحابها من أنواع الظلم في الدنيا ، وقد حذرنا نبينا ﷺ فقال: « اتَّقُوا الظُّلْمَ؛ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ؛ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ»(1)، كل ذلك من شأنه أن يبعث الخوف والوجل في قلوب العباد، فيدفعهم إلى المزيد من تقوى الله، والحذر من المعاصي، التي تجر إلى تلكم الألوان من العذاب.

وسيكون الحديث في هذا المبحث في سبعة مطالب كما يلي :-

المطلب الأول: اتقاء الظالمين النار بوجوههم :

لا يخفى شرف الوجه على غيره من الأعضاء، ولذا نرى الإنسان أحرص ما يكون على وقايته مما يسوؤه في هذه الحياة الدنيا، فلا يكاد يتجاوز أو يغفر لمن أساء إلى وجهه، بل ربما حمله ذلك على شديد البطش والانتقام، ولعظيم شرف الوجه نهى النبي ﷺ عن ضربه، ففي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : «إِذَا قَاتَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَجْتَنِبِ الْوَجْهَ»، ولفظ مسلم: «إِذَا قَاتَلَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيَجْتَنِبِ الْوَجْهَ»، وفي لفظ آخر له: «إِذَا ضَرَبَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيَجْتَنِبِ الْوَجْهَ »، وفي لفظ ثالث: «إِذَا قَاتَلَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيَتَّقِ الْوَجْهَ »، وفي لفظ رابع: «إِذَا قَاتَلَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلاَ يَلْطِمَنَّ الْوَجْهَ »، وفي لفظ خامس: «إِذَا قَاتَلَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيَجْتَنِبِ الْوَجْهَ فَإِنَّ

(1) رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر رضي الله عنه - كتاب البر والصلة والآداب - باب تحريم الظلم (4/1996) رقم (2578)

اللهَّ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ»[(١)]، قال ابن حجر رحمه الله في شرحه على الحديث : «ويدخل في النهي كل من ضُرِبَ؛ في حد، أو تعزير، أو تأديب، وقد وقع في حديث أبي بكرة وغيره عند أبي داود وغيره في قصة التي زنت، فأمر النبي ﷺ برجمها، وقال: «**ارموا واتقوا الوجه**» وإذا كان ذلك في حق من تعين إهلاكه، فمن دونه أولى، قال النووي: «قال العلماء: إنما نهى عن ضرب الوجه لأنه لطيف، يجمع المحاسن، وأكثر ما يقع الإدراك بأعضائه ، فيخشى من ضربه أن تبطل، أو تتشوه كلها، أو

(١) انظر صحيح البخاري مع الفتح – كتاب العتق – باب إِذَا ضَرَبَ الْعَبْدَ فَلْيَجْتَنِبِ الْوَجْه (٥/ ١٨٢) رقم (٢٥٥٩) وصحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب – باب النهي عن ضرب الوجه (٤/ ٢٠١٦) رقم (٢٦١٢) . وقوله في الحديث «على صورته» لا يراد به صورة تماثل صورة الرب عز وجل بإجماع المسلمين والعقلاء، لأن الله لأ يقول عن نفسه: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١]. وإنما يراد به أحد معنيين:

الأول: أن الله خلق آدم على صورة ، اختارها وجعلها أحسن صورة في الوجه، وعلى هذا؛ فلا ينبغي أن يقبح أو يضرب لأنه لما أضافه إلى نفسه اقتضى من الإكرام ما لا ينبغي معه أن يقبح أو أن يضرب.

الثاني: أن الله خلق آدم على صورة الله لأ، ولا يلزم من ذلك المماثلة بدليل قوله ﷺ: «إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أضوء كوكب في السماء» -رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر (٤/ ٢١٧٨،٢١٧٩) برقم (٢٨٣٤)- يعني على صفة القمر من الوضاءة والنور والضياء، ولا يلزم أن يكون على نفس صورة القمر ومماثلاً له من كل وجه فقوله : «إن الله خلق آدم على صورته»؛ يعني خلق آدم عليه السلام على صورة الرحمن ؛ يعني على صفة الرحمن، فخص الله آدم عليه السلام من بين المخلوقات بأن جعله مَجْمَع الصفات وفيه من صفات الله الشيء الكثير؛ يعني فيه من أصل الصفة على التقرير من أنَّ وجود الصفة في المخلوق لا يماثل وجودها في الخالق، فالله له سمع وجعل لآدم صفة السمع، والله موصوف بصفة الوجه وجعل لآدم وجهاً، وموصوف بصفة اليدين وجعل لآدم صفة اليدين، وموصوف بالقوة والقدرة والكلام والحكمة، وموصوف بصفة الغضب والرضا والضحك إلى غير ذلك من الصفات التي يشارك في أصلها آدم من غير مماثلة ، فهو إجمالٌ لمعنى الأحاديث الثانية الأخرى في صفات الله ، فآدم خُصَّ من بين المخلوقات بأنْ جَعَل الله فيه من الصفات ما يشترك بها في أصل الصفة لا في كمال معناها ولا في كيفيتها مع الرحمن جل جلاله، تكريما لآدم عليه السلام... انظر شرح العقيدة الواسطية (٢/ ١١٢،١٠٧) ، وبيان تلبيس الجهمية (٦/ ٦٢١،٣٥٥) وقد توسع شيخ الإسلام بن تيمية / في هذه المسألة وأطال فمن أراد المزيد فليراجعه .

بعضها، والشين فيها فاحش؛ لظهورها وبروزها، بل لا يسلم إذا ضربه غالباً من شين» ا.هـ، والتعليل المذكور حسن، لكن ثبت عند مسلم تعليل آخر؛ فإنه أخرج الحديث المذكور من طريق أبي أيوب المراغي، عن أبي هريرة، وزاد: « فإن الله خلق آدم على صورته»(١).

فانظر إلى عظيم تكريم الرب -سبحانه وتعالى- لوجه الإنسان، فمن لم يعرف لهذا التكريم حقه، ويقدره قدره، ويقابله بما يتلاءم معه من عظيم الشكر والذل، والانقياد لله عَجَّلَ، بل يتكبر عن أن يذل بوجهه، ويخضع لله تعالى في هذه الدنيا؛ فإن حظه من العذاب يوم القيامة يعظم بعظم تكبره وعدم شكره، فلربما كان وجهه أشد الأعضاء عذاباً وألماً، إذ يجعله صاحبه وقاية لسائر أعضاء الجسد من العذاب -والعياذ بالله-، كما قال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٢٤]، أي: أفمن يجعل وجهه وقاية للعذاب الشديد يوم القيامة؛ لعجزه عن الذب عنه، ولكون يديه اللتين كان يتقي بهما المكاره في الدنيا مغلولتين إلى عنقه، كمن هو آمن، لا يناله مكروه، ولا يحتاج إلى الاتقاء بوجه من الوجوه، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ﴾[فصلت: ٤٠](٢).

قال ابن عاشور: «والمقصود عدم التسوية بين من هو في العذاب؛ وهم الظلمة الضالون، ومن هو في النعيم وهم الأبرار المتقون، الذين هداهم الله للحق، وحذف ذكر الفريق الآخر؛ لظهوره من المقابلة التي اقتضاها الاستفهام، ونظيره قوله تعالى:

---

(١) انظر فتح الباري (٥/ ١٨٢ ، ١٨٣) ، والحديث رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الاستئذان ، باب بدء السلام (١١/ ٣) برقم (٦٢٢٧) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب النهي عن ضرب الوجه (٤/ ٢٠١٦) رقم (٢٦١٢) .

(٢) انظر صفوة البيان (١/ ٢٥٤) .

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾[الزمر: ١٩] ، وقوله تعالى : ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢]، وتقديره: أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب؛لأن الله أضله، كمن أَمِنَ من العذاب؛ لأن الله هداه»[١] .

﴿وَقِيلَ لِلظَّـٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ هذا تقريع لهم أي ذوقوا وبال ذلك وعاقبته.

المطلب الثاني: مشي الظالمين على وجوههم في النار:

قال تعالى : ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٤]، وفي الصحيحين من حديث قتادة عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً قال : يا نبي الله كيف يحشر الكافر على وجهه؟ قال: «أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا، قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة؟»، قال قتادة : بلى وعزة ربنا[٢] .

فالجزاء من جنس العمل كرم الله الإنسان وجعل وجهه أبعد أعضاء البدن عن القدمين التي يمشي عليها والتي هي أكثر ما يكون عرضة للأذى لالتصاقهما بالأرض، فمن تكبر وجهه عن طاعة الله في الدنيا صيره الله موضع قدميه في الآخرة يمشي عليه مكرهاً إذلالاً ونكالاً له، والعياذ بالله لا شك أنهم ﴿شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾، ومثلها في المعنى قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٩٢، ٣٩٣) .

(٢) انظر صحيح البخاري – مع الفتح – كتاب الرقاق – باب الحشر (١١/ ٣٧٧) رقم (٦٥٣٢) وصحيح مسلم – كتاب صفة القيامة والجنة والنار – باب يحشر الكافر على وجهه (٤/ ٢١٦١) رقم (٢٨٠٦) .

﴿سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢]، قال قتادة رحمه الله: «هو الكافر يعمل بمعصية الله؛ فيحشره الله يوم القيامة على وجهه، والمؤمن عمل بطاعة الله؛ فيحشره الله على طاعته»(١).

على أن في الآية قولاً آخر؛ وهو أنها مثلٌ ضربه الله للمؤمنين والكافرين في الدنيا؛ فالكافر كمثل من يمشي مكباً على وجهه؛ أي منحنياً، لا يدري أين يسلك، ولا كيف يذهب، بل تائه حائر ضال، أهذا أهدى، ﴿أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا﴾ أي منتصب القامة ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: على طريق واضح بين، وكذلك يكونون في الآخرة؛ فالمؤمن يحشر يمشي سوياً على صراط مستقيم، مفض به إلى الجنة الفيحاء، وأما الكافر فإنه يحشر يمشي على وجهه إلى نار جهنم كما تقدم في الحديث(٢).

المطلب الثالث: سحب الظالمين على وجوههم في النار:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ . يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ . إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[القمر: ٤٧ – ٤٩]، وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر فنزلت: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ . إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾(٣).

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي: خطأ وبعد عن الصواب ﴿وَسُعُرٍ﴾ أي: نيران، جمع سعير، أو جنون. يقال ناقة مسعورة، إذا كانت تفرط في سيرها كالمجنونة(٤).

قال ابن كثير رحمه الله: «أي كما كانوا في سعر وشك وتردد، أورثهم ذلك النار، وكما

(١) انظر تفسير الطبري (٢٣/ ١٣٤).
(٢) انظر تفسير ابن كثير (٨/ ٢٠٨).
(٣) صحيح مسلم – كتاب القدر – باب كل شيء بقدر (٤/ ٢٠٤٦) رقم (٢٦٥٤).
(٤) انظر صفوت البيان (٢/ ٣٧٧).

كانوا ضلالاً، سحبوا فيها على وجوههم، لا يدرون أين يذهبون، ويقال لهم تقريعاً وتوبيخاً ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾[١].

فهذه عقوبة العصاة المخاصمين لله، المنكرين لقدره، يجرون على وجوههم في النار والعياذ بالله، ولا يخفى ما في هذه الصورة من الذل والهوان، مع ما يصاحب سحبهم على وجوههم من تقطيع لتلك الوجوه، وتمزيق وسلخ، وما تتعرض له الحواس التي في الوجه من أذى وإذلال.

المطلب الرابع: شيُّ النار لوجوه الظالمين:

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[الكهف: ٢٩].

فبيّن الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة أنه أعد وهيأ للظالمين ﴿نَارًا﴾ عظيمة فالتنكير فيها للتعظيم ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ السرادق: كل ما أحاط بالشيء من حائط، أو مضرب أو خباء، شبه به ما يحيط بهم من النار، فإن انتشار لهب النار، وإحاطته بأهلها؛ شبيه بالسرادق[٢]، ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ﴾ أي من الظمأ لاحتراق أفئدتهم، ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ أي يقوم لهم مقام الغوث، من باب التهكم بهم؛ لأن ما أغيثوا به ليس فيه غوث أصلاً، ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ وهو كل سائل سخن حتى انتهى حره، أي بماء بلغ الغاية من حرارته، وقيل: هو من جنس الغساق، والغسلين: أي المياه المتعفنة، التي تسيل من أبدان أهل النار[٣]، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ . يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾[إبراهيم: ١٦ - ١٧]،

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٧/ ٤٥٧).

(٢) انظر محاسن التأويل (١١/ ٤٠٥٤)، معاني القرآن للزجاج (٣/ ٢٨٢)، والدر المصون (٧/ ٤٧٨).

(٣) انظر محاسن التأويل (١١/ ٤٠٥٤)، معاني القرآن للزجاج (٣/ ٢٨٢)، والدر المصون (٧/ ٤٧٨).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ماء غليظ مثل دردي الزيت، وقال مجاهد: هو كالدم والقيح، وقال الضحاك: ماء جهنم أسود، وهي سوداء وأهلها سود، قال ابن كثير: وهذه الأقوال ليس شيء منها ينفي الآخر؛ فإن المهل يجمع هذه الأوصاف الرذيلة كلها، فهو أسود منتن غليظ حار[١]، ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ أي: إذا قدم إليهم ذلك الماء ليشربوه فإنه يشوي وجوههم؛ لشدة حرارته، فإذا كان فوح هذا الماء يشوي الوجوه فتسقط فروة الوجه منه؛ لشدة حرارته، فكيف إذا شربوه، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾[محمد: ١٥].

﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي بئس الشراب هذا الماء، الذي يغاث به هؤلاء الظالمون في جهنم، ﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي: وساءت هذه النار التي أعتدنا للظالمين متكأ، من الارتفاق وهو الاتكاء على مرفق اليد[٢]، وهذا من باب التهكم والسخرية بهم، جمعاً بين العذاب الحسي والمعنوي، وإلا فلا ارتفاق لأهل النار، ولا اتكاء، وإنما هم في عذاب أبدي وشقاء، عياذاً بالله من ذلك[٣].

المطلب الخامس: لفح النار وجوه الظالمين:

قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ . فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ . تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾[المؤمنون: ١٠١-١٠٤].

يخبر سبحانه أنه عند النفخ في الصور للبعث والنشور فلا أنساب تنفع آنذاك بل الحال: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ . وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧]، فلا يسأل القريب قريبه، ولا يلتفت إليه مهما كان بينهما من

(١) انظر تفسير ابن كثير (٥/ ١٥٠)، وابن جرير (١٥/ ٢٤٤).
(٢) انظر محاسن التأويل (١١/ ٤٠٥٥،٤٠٥٤).
(٣) انظر تفسير الطبري (١٥/ ٢٤٤، ٢٥٣) وتفسير ابن كثير (٥/ ١٥٠، ١٥١).

أواصر القرابة والمحبة في الدنيا، وإنما كل امرئ مرتهن بعمله؛ فالمفلح من رجحت حسناته على سيئاته، والخاسر الظالم من رجحت سيئاته على حسناته، وكتب الله له الخلود في النار، والدوام والإقامة، وفيها يقاسون ألواناً من العذاب، فالنار ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ﴾، كما قال سبحانه: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [إبراهيم: ٥٠] ، وكما قال تعالى: ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ ﴾[الأنبياء: ٣٩] .

واللفح هو شدة إصابة النار، وإحراقها للشيء، يقال: لفحته النار والسموم بحرها؛ أي: أحرقته إحراقاً شديداً [١]، والمعنى: أن النار تحرق وجوه الظلمة إحراقاً شديداً، والعياذ بالله، يدل على ذلك قوله بعده ﴿ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ﴾، وهذا أثر شدة اللفح، فالكلوح هو تقلص الشفتين، وشمورهما عن الإسنان، من أثر تقلص لحم الوجه وأعصابه، عند شدة الحرق، نحو ما يرى من رؤوس الغنم عندما تشيط بالنار فتبرز الأسنان وتشمر الشفتان[٢]، وهذا عذاب حسي ومعنوي، جمعه الله لهم -والعياذ بالله-، وهو أنه إضافة إلى شدة الألم الذي يعانونه من حرق النار؛ فإنهم يكونوا على هيئة قبيحة، تسوء الناظرين، زيادة في عذابهم -والعياذ بالله-، ولهذا تقول العرب : ما أقبح كلحته لمن قبح فمه وما حوله[٣].

ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه: «﴿ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ﴾ ألم تر إلى الرأس المشيط بالنار، وقد قلصت شفتاه، وبدت أسنانه»[٤]،وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «عابسون» [٥].

(١) انظر لسان العرب مادة (ل ف ح) (٢/ ٥٨٧) ، الدر المصون (٨/ ٣٦٩) .

(٢) انظر لسان العرب مادة : (ك ل ح) (٢/ ٥٧٤) .

(٣) انظر تاج العروس مادة : (ك ل ح) (٧/ ٨١) ومعاني القرآن للزجاج (٤/ ٢٣).

(٤) انظر تفسير ابن كثير (٥/ ٤٩١) ، وتفسير الطبري (١٧/ ١١٦) .

(٥) انظر تفسير الطبري (١٧/ ١١٥ ، ١١٦) وابن كثير (٥/ ٤٩١).

المطلب السادس: طرح الظالمين على وجوههم في النار:

قال تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠]. فمن لقي الله ظالماً مسيئاً، لا حسنة له، أو رجحت سيئاته على حسناته، -وذهب أكثر المفسرين إلى أن المراد بالسيئة هنا الشرك(١). والآية صالحة للعموم- فمن كانت حاله كذلك؛ فإن جزاءه يوم القيامة أن يلقى على وجهه في نار جهنم، منكوساً معكوساً، إذ لم يخضع هذا الوجه، ويذل لله تعالى في الحياة الدنيا، بل تكبر وتجبر وترفع، يقال في لغة العرب: كبّ الشيء يكبه، وكبكبه قلبه، وأسقطه على وجهه(٢)، ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، يقال لهم ذلك عندما تكبُّ وجوههم في النار، أي هل ما ذقتم من العذاب إلا جزاء ما كنتم تعملون في الدنيا بما يسخط الله.

ومثلها قول الله تعالى: ﴿فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ . وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ﴾ [الشعراء: ٩٤،٩٥] أي: كبكب هؤلاء الأنداد التي كانت تُعْبَد من دون الله، وجمع بينها وبين عابديها من المشركين، الغاوين الضالين عن سبيل الحق، فطرحوا في النار جميعاً، بعضهم على بعض، منكبين على وجوههم(٣)، وقال ابن كثير: «قال مجاهد: هووا فيها، وقال غيره: كببوا فيها والكاف مكررة كما يقال صرصر، والمراد أنه ألقي بعضهم على بعض من الكفار وقادتهم الذين دعوهم إلى الشرك»(٤).

قال الراغب: «الكبكبة تدهور الشيء في هوة»، واستشهد بالآية(٥).

(١) انظر تفسير الطبري (١٨/ ١٣٩-١٤٢)، تفسير ابن كثير (٦/ ٢٢٧).
(٢) انظر لسان العرب مادة: (ك ب ب) (١/ ٦٩٥).
(٣) انظر تفسير الطبري (١٧/ ٥٩٧، ٥٩٨).
(٤) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٢٧).
(٥) انظر المفردات، مادة: (ك ب ب) ص (٦٩٥)

المطلب السابع: تقليب وجوه الظالمين في النار:

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا . خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾ [الأحزاب: ٦٤ – ٦٦]، إن تقليب وجوه الظالمين على النار فيه مزيد من العذاب، وفيه دلالة على شمول العذاب لجميع أجزاء الوجه، وفيه من الذل والإهانة ما فيه، فيخبر سبحانه وتعالى أنه لعن الكافرين الظالمين؛ أي أبعدهم من رحمته، وأعد لهم ناراً مستعرة في الدار الآخرة، خالدين فيها أبداً، لا خروج لهم منها، ولا زوال لهم عنها، وليس لهم مغيث ولا معين ينقذهم مما هم فيه.

﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ ﴾ أي: في ذلك اليوم الذي لا يجدون فيه ولياً ولا نصيراً، تقلب وجوههم في النار أي: حالاً بعد حال، ومن جانب إلى جانب، كما يقلب اللحم المشوي فوق النار، ويسحبون في النار على وجوههم، وتلوى وجوههم على جهنم ذات اليمين وذات الشمال، ويقولون حينئذ متحسرين: ﴿يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾ أي: يتمنوا أن لو كانوا في الحياة الدنيا ممن أطاع الله وأطاع الرسول، كما أخبر الله عنهم في حال العرصات بقوله: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا . يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا . لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان: ٢٧ – ٢٩][(١)].

(١) انظر تفسير الطبري (١٩/ ١٨٨) وابن كثير (٦/ ٤٧٤) ومعاني القرآن للزجاج (٤/ ٢٣).

المبحث الرابع : ما ينال بعض أجزاء وجوه الظالمين من العذاب

لقد خص الله ﷻ بعض أجزاء الوجه بمزيد من العذاب؛ لما تعلق به من أسباب اقتضت ذلك؛ فربما تفوه الظالم بكلمة استوجب بها غضب الله وعقوبته، أمد بصره إلى ما يسخطه أو أصغى سمعه إلى ما لا يرضاه ؛ فهذه الحواس التي شرف الله بها وجه الإنسان، وركبها فيه، ينبغي أن تكون منافذ هداية للقلب؛ لدلالته على الخير، هذه عبادتها التي خلقت من أجلها، وشكرها لبارئها على حسن خلقها، فمن استعملها في غير ذلك فقد عرضها لما يتناسب مع جرمها من العذاب، فما أحوجنا إلى مراقبة هذه الحواس وحفظها عما يترتب عليه نكالها فسوف نسأل عنها ونحاسب ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾[الإسراء: ٣٦].

وسوف يكون الحديث في هذا المبحث في ثلاثة مطالب :-

المطلب الأول: ما ينال أفواه الظالمين وما حولها:

ولها من ذلك القسط الأكبر، والحظ الأوفر؛ إذ للفم من عظيم النفع ما ليس لغيره من الجوارح؛ فهو مدخل الطعام والشراب؛ اللذين لا حياة للإنسان بدونهما، كما أنه أحد مدخلي النفس، ولا حياة للإنسان بدونه أيضاً، وهو منطق الإنسان الذي يتكلم به، وفيه اللسان آلة الذوق والكلام، وفيه الأسنان واللعاب، ... إلى غير ذلك من مزيد نعم الله، التي تستوجب علينا المزيد من الشكر، ولكن حال أكثر الناس كما قَالَ تَعَالَى:﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ : ١٣]، لذا نجد أن الله تعالى خص أفواه الظالمين بألوان من العذاب، وسيكون الحديث في هذا المطلب في أربع مسائل :

المسألة الأولى/ قبح هيئة أفواه الظالمين: تقدم معنا عند الحديث عن لفح النار

لوجوه الظالمين أنها عندما تلفح وجوههم؛ لشدة حرها تقطع اللحم والأعصاب التي حول الفم، فتصبح هيئته -والعياذ بالله- أقبح ما يكون؛ تتقلص الشفاه وتشمر، فتبرز الأسنان في صورة ومنظر قبيح لا يطاق النظر إليه، ووصف الله ذلك بقوله سبحانه : ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ﴾[المؤمنون: ١٠٤]. قال ابن جرير: «والكلوح: أن تتقلص الشفتان عن الأسنان، حتى تبدو الأسنان، كما قال الأعشى[١]:

ولـهُ الـمقدمُ في الحربِ ، إذا ساعة الشِّدْق عَنِ النَّابِ كَلَحْ

فتأويل الكلام: يَسْفَع وجوههم لهبُ النار فتحْرقها، وهم فيها متقلصو الشفاه عن الأسنان؛ من إحراق النار وجوههم» [٢].

المسألة الثانية / الختم على أفواه الظالمين: فلا ينطق بشيء يدفع به عن صاحبه مهما قل أو كثر. قال تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [يس: ٦٥]، وهذا إخبار عن حال من أحوالهم، فإنه عندما يرى المشركون أنه لا يدخل الجنة إلا الموحدون، عند ذلك يقولون: تعالوا نجحد، فيجحدون، فيختم الله على أفواههم، وتشهد أيديهم وأرجلهم، ولا يكتمون الله حديثاً، كما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما[٣].

وفي صحيح مسلم من حديث أنس بن مالك ﷺ قال : كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال: «**هل تدرون مم أضحك ؟**»، قال : قلنا الله ورسوله أعلم، قال : «**من مخاطبة العبد ربه؛ يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟، قال: يقول بلى، قال فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني، قال فيقول: كفى**

(١) انظر ديوانه ص (٤٠) والشدق هو : جانب الفم كما في الصحاح مادة شدق ص (٢٤٩).
(٢) انظر تفسير الطبري (١٧/ ١١٥ ، ١١٦).
(٣) انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٢٤١).

بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، قال فيختم على فيه، فيقال لأركانه انطقي، قال فتنطق بأعماله، ثم يخلى بينه وبين الكلام، قال فيقول : بعداً لكن وسحقاً فعنكن كنت أناضل»[1].

وقال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ . وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥،٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]، والأصم: هو الذي لا يتكلم .

وقد يوهم ظاهر هذه الآيات تعارضاً مع آيات أخر، تفيد أن الظالمين من أهل النار يتكلمون ويسمعون ويبصرون، مثل قوله تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣]، وقوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا . وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٢ – ١٣]، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ﴾ [فاطر: ٣٧] . إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على كلامهم وسمعهم وإبصارهم ونطقهم، والجواب :

قال ابن جرير رحمه الله: «جائز أن يكون ما وصفهم الله به من العمى والبكم والصم؛ يكون صفتهم في حال حشرهم إلى موقف القيامة، ثم يجعل لهم أسماع وأبصار ومنطق في أحوال أخر، غير حال الحشر، ويجوز أن يكون ذلك كما روى ابن عباس – وساق سنده من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما : أما قوله ﴿عُمْيًا﴾ فلا يرون شيئاً يسرهم، وقوله ﴿بُكْمًا﴾ لا ينطقون بحجة، وقوله ﴿صُمًّا﴾ لا يسمعون شيئاً يسرهم»[2].

---

(١) انظر صحيح مسلم – كتاب الزهد والرقاق (٤/ ٢٢٨٠ ، ٢٢٨١) رقم (٢٩٦٩) .
(٢) انظر تفسير الطبري (١٥/ ٩٣ ، ٩٤) .

وقال ابن قتيبة : «روى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة : أن رجلاً جاء إلى عكرمة فقال: أرأيت قول الله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١]، فقال إنها مواقف، فأما موقف منها فتكلموا واختصموا، ثم ختم الله على أفواههم، فتكلمت أيديهم وأرجلهم، فحينئذ لا يتكلمون»[(١)].

وكذا قال ابن كثير: «﴿عُمْيًا﴾ أي لا يبصرون ﴿بُكْمًا﴾ يعني لا ينطقون ﴿صُمًّا﴾ لا يسمعون وهذا يكون في حال دون حال؛ جزاء لهم كما كانوا في الدنيا بكماً وعمياً وصماً عن الحق، فجوزوا في محشرهم بذلك أحوج ما يحتاجون إليه، ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي منقلبهم ومصيرهم، ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ قال ابن عباس : سكنت، ﴿زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ أي لهباً ووهجاً وجمراً»[(٢)].

وقال القاسمي : «﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ أي بحجة، أو في وقت من أوقاته؛ لأنه يوم طويل، ذو مواقف ومواقيت، أو جعل نطقهم كلا نطق؛ لأنه لا ينفع ولا يسمع»[(٣)]. ويشهد لهذا قوله تعالى إخباراً عن أهل النار: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ . قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٧، ١٠٨].

المسألة الثالثة / صوت زفير الظالمين وشهيقهم : إن نَفَسَ الإنسان الذي يخرج من فمه وأنفه؛ له من الدلالة ما له على سعادة الإنسان أو شقاوته، فأخبر سبحانه وتعالى عن أهل النار بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود: ١٠٦]، والزفير هو إخراج الأنفاس بدفع وشدة؛ بسبب ضغط التنفس وصعوبته، والشهيق عكسه؛ وهو اجتلاب الهواء إلى الصدر بشدة؛ لقوة الاحتياج إلى التنفس،

(١) انظر تأويل مشكل القرآن ص (٦٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٥/ ١٢٠، ١٢١).

(٣) انظر محاسن التأويل (١٧/ ٦٠٢٧) وانظر تفسير ابن كثير (/ ٣٢٤).

وهذا كناية عن الغم والكرب، الذي يحل بأهل النار؛ تنفيراً من الأسباب المؤدية إليه، وغالباً ما يعلو ويرتفع صوت النفس؛ زفيراً وشهيقاً، كلما زاد الغم والهم والكرب الذي يعيشه الإنسان.

وقال أهل اللغة : الزفير ابتداء صوت الحمار عندما ينهق، والشهيق آخر صوته في النهيق[1]، شبه الله صراخهم في النار بأصوات الحمير، وجعلها كذلك زيادة في عذابهم ونكالهم -والعياذ بالله-، قال قتادة رحمه الله: «صوت الكافر في النار صوت الحمار؛ أوله زفير، وآخره شهيق»[2].

فهذه حال أهل النار -والعياذ بالله- عذاب ونكال، حتى في أنفاسهم وأصواتها التي تخرج من أجوافهم، فهي أقبح الأصوات؛ زيادة في عذابهم، كما قال الله عنهم في الآية الأخرى : ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٠]، أي تنفس شديد يخرج من أقصى أجوافهم، وهم مع ذلك ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ شيئاً ما؛ لشدة الهول، أو لشدة الزفير.

روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : «إذا بقي من يخلد في النار؛ جعلوا في توابيت من نار، فيها مسامير من نار، فلا يرى أحد منهم أنه يعذب في النار غيره، ثم تلا عبد الله: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾»[3].

المسألة الرابعة / الغصص التي يتجرعها الظالمون: عذاب الظالمين في النار لا نهاية له ولا حصر بل حتى ما يؤملون فيه الغوث والنجاة هو عذاب؛ فالطعام والشراب الذي تشتد حاجتهم إليه هو عذاب لهم؛ في أكله وشربه، وطعمه وريحه، ولونه

---

(١) انظر معاني القرآن للزجاج (٣/ ٧٩) ولسان العرب مادة : (ش ه ق) (١٠/ ١٩١).

(٢) انظر تفسير الطبري (١٣/ ٥٧٦ ، ٥٧٧) وتفسير عبد الرزاق (٢/ ٤٩) ومحاسن التأويل (٩/ ٣٤٨٥) والتحرير والتنوير (١٢/ ١٦٥).

(٣) انظر تفسير ابن كثير (٥/ ٣٧٢) وصفوة البيان (٢/ ٤٤) .

وهيئته، وحرارته وبرودته، بل حتى في مستساغه ومجراه؛ يتجرعون ألوان الغصص والعذاب، من حين دخوله من أفواههم حتى يخرج من أدبارهم ، بل الموت أرحم لهم من تلك الحال، ولكن هيهات ثم هيهات، وتأمل - أبعدني الله وإياك عن النار وما فيها من عذاب – ما نطق به الكتاب فيما يتجرع الظالمون؛ من ألوان الغصص والعذاب.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ . مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ . يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾[إبراهيم: ١٥ – ١٧].

وقوله: ﴿ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ ﴾ أي: استنصرت الرسل ربها، وطلبت منه الفتح على قومها، أو استفتحت الأمم على أنفسها، كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿ وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: ٣٢]، كما أنهم استفتحوا على أنفسهم يوم بدر، واستفتح رسول الله ﷺ واستنصر، وقال الله تعالى للمشركين: ﴿ إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡ وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـًٔا وَلَوۡ كَثُرَتۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[الأنفال: ١٩] (١).

﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ والجبار: المتعاظم الشديد التكبر، الذي لا يرى لأحد عليه حقاً، والعنيد: المعاند للحق الذي يعدل عن القصد(٢)، والمراد بهم المشركون المتعاظمون، أي: متجبر في نفسه معاند للحق، كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ . مَّنَّاعٍ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ مُّرِيبٍ . ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴾ [ق: ٢٤ – ٢٦].

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٤٠٣) ومعاني القرآن للزجاج (٣/ ١٥٦) .

(٢) انظر معاني القرآن للزجاج (٣/ ١٥٦) ، والتحرير والتنوير (١٣/ ٢١٠).

وفي حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**يخرج عنق من النار يوم القيامة، لها عينان تبصران، وأذنان تسمعان، ولسان ينطق، يقول: إني وكلت بثلاثة: بكل جبار عنيد، وبكل من دعا مع الله إلها آخر، وبالمصورين**»(١).

وقوله: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ «وراء» ها هنا بمعنى «أمام»، كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]، أي: من وراء الجبار العنيد جهنم، أي: هي له بالمرصاد، يسكنها مخلداً يوم المعاد، ويعرض عليها غدواً وعشياً، إلى يوم التناد(٢).

﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ أي: في النار، ليس له شراب إلا من حميم أو غساق، فهذا في غاية الحرارة، وهذا في غاية البرد والنتن، كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ . وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ [ص: ٥٧ -٥٨]، والصديد: المهلة، أي مثل الماء يسيل من الدمل ونحوه، وجعل الصديد ماء على التشبيه البليغ في الإسقاء؛ لأن شأن الماء أن يسقى، والمعنى: ويسقى صديدا عوض الماء إن طلب الإسقاء.

وقال مجاهد، وعكرمة: «الصديد: من القيح والدم»(٣).

وقال قتادة: «هو ما يسيل من لحمه وجلده». وفي رواية عنه: «الصديد: ما يخرج من جوف الكافر، قد خالط القيح والدم»(٤).

وروى الإمام أحمد عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله: ﴿**وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُۥ**﴾ قال: «**يُقَرَّبُ إليه فيتكرهه، فإذا أدنى منه شوى وجهه،**

---

(١) رواه أحمد في المسند (٣/ ٤٠) والترمذي في السنن كتاب صفة جهنم – باب ما جاء في صفة النار (٤/ ٦٠٥،٦٠٤) رقم (٢٥٧٤) وقال الترمذي: «حديث حسن غريب صحيح». وصححه الألباني كما في صحيح سنن الترمذي برقم (٢٠٨٣).

(٢) انظر تفسير الطبري (١٣/ ٦١٧) ، وابن كثير (٤/ ٤٠٤) والدر المصون (٧/ ٧٩) .

(٣) انظر تفسير الطبري (١٣/ ٦١٩) وابن كثير (٤/ ٤٠٤) .

(٤) انظر تفسير الطبري (١٣/ ٦١٩) وابن كثير (٤/ ٤٠٤) .

ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره، يقول الله تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥] ، ويقول: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩]» (١).

وقوله: ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ التجرع : تكلف الجرع، وهو: بلع الماء. أي: يتغصصه ، ويتحساه ويشربه قهرا وقسرا (٢).

قال ابن كثير : «لا يضعه في فيه حتى يضربه الملك بمطراق من حديد، كما : قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾[الحج: ٢١]» (٣).

﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ السوغ: انحدار الشراب في الحلق بدون غصة، وذلك إذا كان الشراب غير كريه الطعم ولا الريح، يقال: ساغ الشراب، وشراب سائغ، ومعنى ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ لا يقارب أن يسيغه، فضلا عن أن يسيغه بالفعل، أي: لا يكاد يزدرده من شدة كراهته، ولسوء لونه وطعمه وريحه، وحرارته أو برده الذي لا يستطاع(٤).

﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ إتيان الموت : حلوله، أي حلول آلامه وسكراته، بقرينة ، قوله:﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ ، أي : فيستريح. أي: يأتيه الموت من كل موضع فيألم له جميع بدنه وجوارحه وأعضائه(٥).

قال ميمون بن مِهْرَان: « من كل عظم، وعرق وعصب»(٦).

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٥/ ٢٦٥) ، والطبري في تفسيره (١٣/ ٦٢٠) والترمذي في السنن كتاب صفة جهنم – باب ما جاء في صفة شراب أهل النار (٤/ ٦٠٦) رقم (٢٥٨٣) وقال: «هذا حديث غريب، وضعفه الألباني كما في ضعيف سنن الترمذي رقم (٤٧٧) .

(٢) انظر التحرير والتنوير (١٣/ ٢١١) ، والدر المصون (٧/ ٨١) .

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٠٥) .

(٤) انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٤٠٥) ، والتحرير والتنوير (١٣/ ٢١١).

(٥) انظر تفسير الطبري (١٣/ ٦٢١) ، و تفسير ابن كثير (٤/ ٤٠٥) ، والتحرير والتنوير (١٣/ ٢١١).

(٦) انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٤٠٥).

وقال عكرمة وإبراهيم التيمي: «حتى من أطراف شعره» [1].

وقال ابن جرير: «﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: من أمامه وورائه، وعن يمينه وشماله، ومن فوقه، ومن تحت أرجله، ومن سائر أعضاء جسده»، وروى عن مجاهد قال: «تعلق نفسه عند حنجرته فلا تخرج من فيه فيموت، ولا ترجع إلى مكانها من جوف، فيجد لذلك راحة فتنفعه الحياة» [2].

وقال الضحاك، عن ابن عباس: «﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ قال: أنواع العذاب الذي يعذبه الله بها يوم القيامة في نار جهنم، وليس منها نوع إلا الموت يأتيه منه، لو كان يموت، ولكن لا يموت؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾[فاطر: ٣٦]» [3].

قال ابن كثير رحمه الله: «ومعنى كلام ابن عباس رضي الله عنه: أنه ما من نوع من هذه الأنواع من العذاب إلا إذا ورد عليه اقتضى أن يموت منه لو كان يموت، ولكنه لا يموت ليخلد في دوام العذاب والنكال؛ ولهذا قال: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ﴾» [4].

وقوله: ﴿وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي: ينتظره عذاب آخر، بعد العذاب الذي هو فيه. والغليظ: حقيقته الخشن الجسم، وهو مستعمل هنا في القوة والشدة، بجامع الوفرة في كل، أي عذاب ليس بأخف مما هو فيه. [5]

(١) انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٤٠٥).

(٢) انظر تفسيره (١٣/ ٦٢١).

(٣) انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٤٠٥).

(٤) انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٤٠٥)

(٥) انظر التحرير والتنوير(١٣/ ٢١١).

قال ابن كثير رحمه الله: «والمعنى: أي: وله من بعد هذا الحال عذاب آخر غليظ، أي: مؤلم صعب شديد، أغلظ من الذي قبله، وأدهى وأمر، وهذا كما قال تعالى عن شجرة الزقوم: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ . طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ . فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ . ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ . ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٤ - ٦٨]، فأخبر أنهم تارة يكونون في أكل زقوم، وتارة في شرب حميم، وتارة يردون إلى الجحيم - عياذاً بالله من ذلك-، وهكذا قال تعالى: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ . يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ . طَعَامُ الْأَثِيمِ . كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ . كَغَلْيِ الْحَمِيمِ . خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ . ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ . ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ . إِنَّ هَٰذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ [الدخان: ٤٣-٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ . فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ . وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ . لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤١ - ٤٤]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ . جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ . هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ . وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ [ص: ٥٥ - ٥٨]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنوع العذاب عليهم، وتكراره وأنواعه وأشكاله، مما لا يحصيه إلا الله عز وجل جزاء وفاقا، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]»(١).

المطلب الثاني: ما ينال أبصار الظالمين من العذاب:

سبق معنا شيء من ذلك عند الحديث عن الذل الذي يكسو وجوه الظالمين، وأن من آثاره خشوع أبصار الظالمين؛ لأن الأبصار أكثر الحواس التي يظهر عليها أثر الذل أو العز، ومما جاء في خصوص أبصار الظالمين آية الإسراء الآنفة الذكر، وفيها

(١) انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٤٠٥-٤٠٦).

قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ مما يدل على معاقبة الله لهم بعمى أبصارهم، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ . قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا . قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾[طه: ١٢٤ – ١٢٦]، فيخبر الحق سبحانه وتعالى أن من أعرض عن ذكره في هذه الدنيا؛ أي عن الهدى الداعي إلى ذكر الله ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ أي: ضيقة شديدة وهي نازلة في عذاب القبر، كما تقدم بذلك الأثر(١).

ويصح أن يكون ذلك في الدنيا، كما قال ابن كثير: «فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره حرج؛ لضلاله، وإن تنعم ظاهره، ولبس ما شاء، وأكل ما شاء، أو سكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى؛ فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبه يتردد، فهذا من ضنك المعيشة ، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ قال : الشقاء.(٢)

﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ يصح أن يكون المراد بذلك عمى البصر، ويكون هذا في بعض مواقف الآخرة؛جمعاً بين الآيات كما سيأتي قريباً إن شاء الله(٣).

ويصح أن يكون المراد بذلك عمى البصيرة والحجة، كما رواه ابن جرير وعبد الرزاق في تفسيريهما عن مجاهد رحمه الله، والأولى العموم، وهو أنه يحشر أعمى البصر والبصيرة، كما رجحه الطبري وابن كثير رحمهما الله (٤).

---

(١) تقدم تخريجه ص (١١٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٥/ ٣١٦، ٣١٧) .

(٣) انظرما يأتي ص (١٤٥).

(٤) انظر تفسير الطبري (١٦/ ٢٠٠ ، ٢٠١) وتفسير عبد الرزاق (٢/ ٤٩) وتفسير ابن كثير (٥/ ٣١٦ ، ٣١٧) .

لأنه كان كذلك في الدنيا متناسياً لآيات الله، تاركاً لها، معرضاً عنها، لم يتدبرها ببصره وبصيرته، ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ أي: يترك في النار، قال قتادة : «نسي من الخير، ولم ينس من الشر»(١). قال ابن القيم رحمه الله: «فيه تنبيه على أنه من عمى البصر، وأنه جوزي من جنس عمله، فإنه لما أعرض عن الذكر الذي بعث الله به رسوله، وعميت عنه بصيرته، أعمى الله بصره يوم القيامة، وتركه في العذاب، كما ترك الذكر في الدنيا، فجازاه على عمى بصيرته عمى في الآخرة، وعلى تركه ذكره تركه في العذاب»(٢).

المطلب الثالث : ما ينال أسماع الظالمين من العذاب:

لقد خلق الله تعالى الناس، وجعل لهم الحواس ليشكروه بها، ولتكون وسيلة لعبادة الله تعالى، كما قال جل شأنه: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

وأخبر سبحانه وتعالى عن مسائلته ومحاسبته للعباد؛ عما يسمعونه، أو يرونه، أو يقولونه، أو يعتقدونه بتلك الجوارح، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[الإسراء: ٣٦].

وأخبر سبحانه أن هذه الجوارح ستشهد على أصحابها يوم القيامة بما سمعت، أو رأت، أو عملت، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ . حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ . وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن

---

(١) انظر تفسير الطبري (١٦/ ٢٠١).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٤٥)، وانظر: تفسير الآية في تفسير ابن كثير (٤/ ٤٠٣-٤٠٦)، وتفسير الطبري (١٣/ ٦١٤-٦٢١) والتحرير والتنوير (١٣/ ٢٠٩-٢١١).

ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ. وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾[فصلت:١٩-٢٣].

وأخبر سبحانه أن الناس يقدمون على ربهم يوم القيامة أشد ما يكونون سمعاً وبصراً فقال تعالى: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَـٰكِنِ ٱلظَّـٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [مريم: ٣٨]. لكن جاء في القرآن الكريم ما يدل على أن عذاب أولئك الظلمة ينال جوارحهم هذه، فيصيبها الصمم والعمى والبكم، فقال سبحانه: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴾[الإسراء: ٩٧]، وقال تعالى : ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾[الأنبياء : ١٠٠].

فأخبر الله ﷻ في الآية الأولى عن الحال التي يحشر عليها الظالمون يوم القيامة قال ابن كثير رحمه الله: «وقوله :﴿ عُمْيًا ﴾ أي: لا يبصرون ﴿وَبُكْمًا ﴾ يعني: لا ينطقون ﴿وَصُمًّا ﴾: لا يسمعون. وهذا يكون في حال دون حال جزاء لهم كما كانوا في الدنيا بكمًا وعميًا وصمًا عن الحق، فجوزوا في محشرهم بذلك أحوج ما يحتاجون إليه. ﴿مَّأْوَىٰهُمْ ﴾ أي: منقلبهم ومصيرهم ﴿ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ ﴾ قال ابن عباس: سكنت، وقال مجاهد: طفئت ﴿زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴾ أي: لهبًا ووهجًا وجمرًا، كما قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ [النبأ: ٣٠]» (١).

ويخبر سبحانه في الآية الثانية بأن للظالمين ﴿ زَفِيرٌ﴾ في جهنم والعياذ بالله ؛ وهو: خروج أنفاسهم بتردد شديد تنتفخ منه ضلوعهم، ﴿ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾ ختم الله على أسماعهم ؛ لأنهم لم يكونوا يصغوا بها للحق في الدنيا ، فَصُمَّتْ في الآخرة جزاء وفاقاً (٢).

---

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ١٢٠) ، وتفسير القاسمي (١٠/ ٤٠٠٢) .
(٢) انظر تفسير ابن كثير (٥/ ٣٧٢) ، وتفسير القاسمي (١١/ ٤٣١١) .

والجمع بين ظاهر هذه الآيات وما جاء في آيات أخر تدل على خلاف ذلك، مثل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢] ، وقوله :﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ [الكهف: ٥٣]، وقوله : ﴿ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴾[الملك: ٧]، وقوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾[الزخرف: ٧٧] .

والجمع بين تلك الآيات من وجوه – كما قال الشيخ الأمين الشنقيطي رحمه الله –:

«الوجه الأول:هو ما استظهره أبو حيان من كون المراد مما ذكر حقيقته، ويكون ذلك في مبدأ الأمر، ثم يرد الله تعالى إليهم أبصارهم ونطقهم وسمعهم، فيرون النار، ويسمعون زفيرها، وينطقون بما حكى الله تعالى عنهم في غير موضع.(١)

الوجه الثاني : أنهم لا يرون ولا يسمعون شيئاً يسرهم، ولا ينطقون بحجة، كما أنهم كانوا في الدنيا، لا يبصرون الحق ولا يسمعونه ولا ينطقون به.

الوجه الثالث : أن الله إذا قال لهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] وقع بهم ذاك العمى والصمم والبكم؛ من شدة الكرب واليأس من الفرج، قال تعالى : ﴿ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾[النمل: ٨٥] .

وعلى هذا القول تكون الأحوال الثلاثة مقدرة» . انتهى كلام الشنقيطي رحمه الله(٢).

(١) انظر البحر المحيط (٦/ ٨٢).

(٢) دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب ص (٢٠٢) .

الخاتـمة

إن الوجه عظيم الخطر بالنسبة للإنسان ؛ فهو علامة على إنسانيته، وفيصل يميزه عمن سواه، وهو العضو الذي يجتمع فيه من الحواس، ما لم يجتمع في غيره، مما زاد في شرفه ومكانته؛ فتلك الحواس قد تكون سبباً في عذاب وجه الإنسان ؛ بل سائر بدنه منافذ هداية للقلب، ودلالته على توحيد الخالق وعظمته، فمن لم يقابل ذلك بعظيم الشكر، والخضوع، والذل، والتواضع لله تعالى– الذي عنوان ذُلُّ الوجه خضوعُه – ؛ فإنه قد عرض نفسه لعقوبة الله تعالى، واستحق منها ما يتناسب مع تفريطه في شكر هذه النعمة ؛ ولهذا توعد الله أولئك بالعقاب الأليم الذي ينال وجوههم كما تقدم بيانه في هذا المكتوب.

وقد تبين لي من خلال البحث النتائج التالية :

أولاً: عظيم رحمة الله تعالى؛ إذ وصف لنا ما أعده من أليم العذاب لمن تجاسر على مخالفة أمره، وترك لنفسه الحبل على الغارب؛ ترتع في معصية الله؛ كل ذلك من أجل أن يكون العباد على بصيرة وبينة من أمرهم؛ فلا يهلك على الله إلا من سفه نفسه .

ثانياً: عظيم عذاب الله تعالى الذي ينال الظالمين؛ فإذا كان هذا البحث في وصف ما ينال وجوههم من العذاب فقط ، فكيف بما هو فوق ذلك أو دونه ، مما ينال بقية جوارحهم من صنوف العذاب وألوانه ، نسأل الله العفو ، العافية .

ثالثاً: أن من يقرأ الكتاب والسنة ، وما جاء فيهما من وصف النار ، وما ينال أهلها من العذاب، بقلب حاضر واعي، فكأنما أوقف على شفير جهنم، وأصبح ينظر إليها بعيني رأسه، وهي يحطم بعضها بعضاً، ويرى أهلها وهم يعانون فيها

صنوف العذاب الذي يحملهم على تمني ما يكرهون وكانوا منه يفرون ﴿ وَنَادَوْا يَمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾، ولكن هيهات ﴿ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾[الزخرف:٧٧]

رابعاً: الظالم عرض وجهه لعذاب الله تعالى في الحياة قبل الممات ؛ فذل المعصية ملازم لوجوههم وإن بسط لهم في الحياة الدنيا ؛ كما قال الحسن البصري رحمه الله: إنهم وإن طقطقت بهم البغال[(١)]، وهملجت بهم البراذين[(٢)]، فإن المعصية لا تفارق رقابهم ، أبى الله إلا أن يذل من عصاه [(٣)].

خامساً: عظيم قدر الوجه ومكانته وشرفه على غيره من الأعضاء؛ فمن عرف لهذا التشريف الإلهي ، قدره وسخر وجهه في شكر الله وحمده ؛ زاد وجهه شرفاً على شرف ، وجاء يوم القيامة بوجه أبيض مشرقاً بقدر ما كان عليه من نور الإيمان في هذه الحياة الدنيا ، وأما من تجاهل هذا التشريف من الله لوجهه ، ولم يخضع به لله تعالى ؛ فإنه يأتي يوم القيامة بوجهه أسود مظلماً ، وينال من العذاب بقدر ما كان عليه من تكبر عن طاعة الله .

سادساً: أن الوجه هو عنوان صاحبه ومرآته التي تعكس ما بقلبه من الإيمان والكفر، والطاعة والمعصية، والعواطف والمشاعر، والأفراح والأتراح ، وجميع تلك المعاني يقرأها الآخرون على صفحة وجهه مع تفاوتهم في تلك القراءة بحسب ما وهبهم الخالق من صفاء بصر وبصيره يستظهرون بهما تلك القسمات التي تظهر على ذلك الوجه .

---

(١) الطقطقة : صوت الحافر عند مشي الخيل والبغال على أرض صلبة . انظر لسان العرب مادة (ط ق ق) (١٠/ ٢٢٥)

(٢) الهملجة : حسن سير الدابة في سرعة ، وقوله : البراذين جمع برذون وهو الدابة . انظر لسان العرب مادة (هـ م ل ج) (٢/ ٣٩٣) ، ومادة (ب ر ذ ن) (١٣/ ٥١)

(٣) انظر محاسن التأويل (١٢/ ٤٥٠٨) .

وأخيراً أحمد لله تعالى على ما من به من إكمال هذا البحث وإتمامه ، سائلاً المولى بحوله وقوته أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، نافعاً لمن كتبه أو قرأه، سبباً يباعد وجهه عن العذاب؛ الذي وصف هذا البحث جانباً منه، محققاً لصدق الخوف من الله تعالى، حافزاً ودافعاً على الفرار منه وإليه .

اللهم إن قصَّرت بنا الأعمال؛ فإن الرجاء والأمل في رحمتك؛ فلا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك . وجادت القريحة هنا بقولي:

إلـهي رجـوتُك يا خـالقي	ويا واهبَ الخلقِ كلَ النـعمِ
تـمنُّ علـيَّ ببعـدِ الأذى	عن الوجهِ مني وصرفِ النقمِ
وتَكْسِـيهِ من نَظْرَةٍ نُضْرَةً	إلى وجهِك الحقِ يا ذا الكـرمِ
وإن قـلَّ زادي إلى بغـيتي	فرحماك منها مسمى الرحـمِ
فأنـت الذي من تـوجهْ إليه	بصدقٍ محـالٌ يَعُدْ بالعـدمِ
وصـلِّ إلـهي على المصطفى	بشـيراً بعثتَ لخـير الأمـم

وصلى اللهم على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين .

د . فايز بن حبيب الترجمي

فهرس المصادر والمراجع

١. **الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان**، للأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط الأولى ١٤٠٨هـ .

٢. **تاج العروس من جواهر القاموس**، للسيد محمد بن مرتضى الحسيني الزبيدي، ط التراث العربي، وزارة الإرشاد والأنباء ، الكويت .

٣. **تأويل مشكل القرآن** لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت:٢٧٦هـ) ، بشرح السيد أحمد صقر. دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط الثالثة ، ١٤٠١هـ .

٤. **تفسير البحر المحيط** ، لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي . وبهامشه تفسير النهر الماد من البحر لأبي حيان، والدر اللقيط من البحر المحيط، دار الفكر ، بيروت ، ط الثانية، ١٤٠٣هـ .

٥. **تفسير التحرير والتنوير**، للعلامة محمد الطاهر ابن عاشور، الدار السلفية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

٦. **تفسير الفخر الراز** ، للإمام محمد الرازي فخر الدين بن العلامة ضياء الدين عمر، دار الفكر ، ط الثالثة ، ١٤٠٥هـ .

٧. **تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل**، لمحمد جمال الدين القاسمي، تصحيح وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي، دار أحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي.

٨. **تفسير القرآن العظيم**، للحفظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، تحقيق د. محمد إبراهيم البنا، دار ابن حزم، ط الأولى، ١٤١٩هـ.

٩. **تفسير القرآن الكريم**، لعبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق د مصطفى مسلم، مكتبة الرشد، الرياض، ط الأولى، ١٤١٠هـ.

١٠. **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، راجعه وقدم له طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الأوس بالمدينة، دار الصفا، الزقازيق.

١١. **التيسير في القراءات السبع**، لأبي عمرو الداني، دار الكتاب العربي، بيروت، ط الثانية، ١٤٠٤هـ.

١٢. **جامع البيان عن تأويل آي القرآن** لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق د. عبدالله التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، القاهرة، ط الأولى، ١٤٢٢هـ .

١٣. **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**، لأحمد بن يوسف المعرف بالسمين الحلبي، تحقيق د. أحمد محمد الخراط ، دار القلم ، دمشق ، ط الأولى ، ١٤١٥هـ .

١٤. **دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب**، للعلامة محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، إشراف بكر بن عبد الله أبو زيد ، دار عالم الفوائد ، ط الأولى، ١٤٢٦هـ.

١٥. **ديوان الأعشى** ، تحقيق لجنة الدراسات في دار الكتاب اللبناني، بإشراف كامل سليمان، ط الأولى .

١٦. **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، للعلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، ضبط وتصحيح علي عبد الباري عطية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط الأولى ، ١٤١٥هـ .

١٧. **الزهد**، لهناد بن السري الكوفي، تحقيق عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت ، ط الأولى ، ١٤٠٦هـ .

١٨. **سنن ابن ماجه**، للحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة.

١٩. **سنن أبي داود**، للإمام الحافظ أبي داوود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة الإسلامية استانبول، تركيا.

٢٠. **سنن الترمذي**،لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي ،تحقيق أحمد محمد شاكر،دار الكتب العلمية،بيروت .

٢١. **سنن النسائي** بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن بحر النسائي، عناية وترقيم عبد الفتاح أبو غدة ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت .ط الثالثة ، ١٤٠٩هـ.

٢٢. **شعب الإيمان** ، للبيهقي ؛ أبي بكر أحمد بن الحسين، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى ، ١٤١٠هـ .

٢٣. **صحيح البخاري مع الفتح**، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة بيروت .

٢٤. **صحيح الترغيب والترهيب**، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط الأولى ، ١٤٠٩هـ .

٢٥. **صحيح الجامع الصغير وزيادته،** لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، إشراف زهير الشاويش ، ط الثالثة ، ١٤١٠هـ .

٢٦. **صحيح سنن ابن ماجه،** للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربي لدول الخليج ، الرياض، ط الثانية ، ١٤٠٨هـ.

٢٧. **صحيح سنن الترمذي،** للشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، مكتب التربية العربي لدول الخليج ، الرياض ط الأولى ، ١٤٠٨هـ.

٢٨. **صحيح مسلم،** للإمام مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٩. **صفوة البيان لمعاني القرآن،** للشيخ حسنين محمد مخلوف ، دار الكتاب العربي بمصر ، ط الأولى ١٣٧٥هـ .

٣٠. **ضعيف سنن الترمذي،** للشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، مكتب التربية العربي لدول الخليج ، الرياض ط الأولى ، ١٤١١هـ.

٣١. **العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير** ، للشيخ العلامة محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، تحقيق خالد بن عثمان السبت، دار عالم الفوائد، ط الثانية ، ١٤٢٦هـ.

٣٢. **فتح الباري بشرح صحيح البخاري،** للحافظ أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، ط دار المعرفة ، بيروت .

٣٣. **القاموس المحيط** لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادي،تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط الأولى، ١٤٠٦هـ.

٣٤. **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل،** لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط ١٣٩٢هـ .

٣٥. **لسان العرب،** لأبي الفضل محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، دار صادر، بيروت، ط الأولى، ١٤١٠هـ.

٣٦. **مجموع الفتاوى** لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية ، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم الحنبلي، ط مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، بإشراف وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ١٤٢٥هـ.

٣٧. **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، للقاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق عبد السلام عبد الشافي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، ١٤١٣هـ.

٣٨. **مختار الصحاح**، للإمام محمد بن أبي يكر بن عبد القادر الرازي، المركز العربي للثقافة والعلوم، بيروت.

٣٩. **المستدرك على الصحيحين**، للحاكم أبي عبد الله النيسابوري، وبذيله التلخيص للذهبي، دار المعرفة ، بيروت.

٤٠. **المسند**، للإمام أحمد بن حنبل الشيباني، وبهامشه كنز العمال، دار المعرفة، بيروت.

٤١. **المصباح المنير**، لأحمد بن محمد بن علي الفيومي ، مكتبة لبنان ، بيروت .

٤٢. **المصنف في الأحاديث والآثار**، للإمام الحافظ عبد الله بن محمد بن أبي شيبة ، تحقيق الأستاذ عبد الخالق الأفغاني ، الدار السلفية ، الهند ، ط الثانية ١٣٩٩هـ .

٤٣. **المصنف** للحافظ أبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت ، ط الثانية ، ١٤٠٣هـ .

٤٤. **معاني القرآن وإعرابه**، للزجاج أبي إسحاق بن إبراهيم بن السري، شرح وتحقيق د. عبد الجليل عبده شلبي، دار الحديث، القاهرة ، ط الأولى، ١٤١٤هـ .

٤٥. **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة**، لشمس الدين محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت.

٤٦. **المفردات في غريب القرآن**، للراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داودي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط الثانية، ١٤١٨ هـ .

فهرس الموضوعات

الموضوع **الصحيفة**

الملخص ٨٥

المقدمة ٨٦

الفصل الأول : ما ينال وجوه الظالمين من العذاب في الحياة الدنيا ٩٢

الفصل الثاني : ما ينال وجوه الظالمين من العذاب عند الموت ١٠٢

الفصل الثالث : ما ينال وجوه الظالمين من العذاب في الحياة الآخرة، وفي أربعة مباحث: ١٠٩

المبحث الأول : تسليط العذاب على وجوه الظلمة................................ ١١٠

المبحث الثاني : هيئة وجوه الظلمة، وفيه مطلبان: ١١١

المطلب الأول : ذل وجوه الظالمين وهوانها................................ ١١٤

المطلب الثاني : أمارات ذلّ وجوه الظالمين، وفيه ثلاث مسائل: ١١٤

المسألة الأولى : سواد وجوه الظالمين ١١٥

المسألة الثانية : خشوع وجوه الظالمين.. ١١٧

المسألة الثالثة : شخوص أبصار وجوه الظالمين وعدم طرفها........................ ١٢١

المبحث الثالث : صنوف العذاب الذي ينال وجوه الظالمين، وفيه سبعة مطالب : ١٢٢

المطلب الأول : اتقاء الظالمين النار بوجوههم.. ١٢٢

المطلب الثاني : مشي الظالمين على وجوههم في النار................................ ١٢٥

المطلب الثالث : سحب الظالمين على وجوههم في النار........................ ١٢٦

المطلب الرابع : شيّ النار وجوه الظالمين.. ١٢٧

الموضوع **الصحيفة**

المطلب الخامس : لفح النار لوجوه الظالمين ١٢٨

المطلب السادس : طرح الظالمين على وجوههم في النار ١٣٠

المطلب السابع : تقليب وجوه الظالمين في النار ١٣١

المبحث الرابع : ما ينال بعض أجزاء وجوه الظالمين من العذاب، وفيه ثلاثة مطالب : ١٣٢

المطلب الأول: ما ينال أفواه الظالمين وما حولها، وفيه أربع مسائل: ١٣٢

المسألة الأولى : قبح هيئة أفواه الظالمين ١٣٢

المسألة الثانية : الختم على أفواه الظالمين ١٣٣

المسألة الثالثة : صوت زفير الظالمين وشهيقهم ١٣٥

المسألة الرابعة : الغصص التي يتجرعها الظالمون ١٣٦

المطلب الثاني : ما ينال أبصار الظالمين من العذاب ١٤١

المطلب الثالث : ما ينال أسماع الظالمين من العذاب ١٤٣

الخاتمة ١٤٦

فهرس المصادر والمراجع ١٤٩

فهرس الموضوعات ١٥٣